شهر في دمشق

تأليف
عبد الله بن محمد بن خميس

الدار الأثرية

شهر في دمشق

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

الدار الأثرية للطباعة والنشر والتوزيع

عمان - الأردن - تلفاكس : ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢

خلوي : ٠٠٩٦٢/٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب : ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي : ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني : alatharya1423@yahoo.com

شهر في دمشق

تأليف
عبد الله بن محمد بن خميس

الدار الأثرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين يجدون في أعمال الأمم الحيَّة ما يلهب شعورهم، ويحفز هممهم، ويذكي فيهم روح التضحية والعمل، ويلهمهم أن هذه الأمجاد من صنع بشر مثلهم آمنوا بأن الحياة كفاح وتضحية وعمل.. فراحوا يصارعون الأهوال، ويتخطَّون الصعاب.. حتى خلقوا العجائب، وقهروا الأحداث..

إلى شباب الجزيرة العربية أهدي هذا الكتاب، ليشاهدوا فيه ما صنعته أيدي إخوان لهم في اللغة، والدين، والجوار، والآمال، والآلام.. عسى أن يكون لهم في هؤلاء أسوة، وأن يكونوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه..

دمشق / ١٣٧٤هـ

١٩٥٥م

عبدالله بن خميس

مقدمة
الطبعة الثانية

وعود على بدء وبعد حوالي خمسة وثلاثين عاماً حينما دخل المطبعة أول مؤلف لي هو (شهر في دمشق) وبرز إلى عالم الوجود رحلة قمت بها إلى دمشق عام ١٣٧٥هـ وأنا آنذاك مدير لمعهد الأحساء العلمي.. سجلت في هذه الرحلة مشاهداتي وانطباعاتي وقمت بتدوين كل ما وقع عليه نظري مما يستحق التدوين منذ أن خرجت من الرياض ماراً بمكة وجدّة فدمشق إلى أن عدت إلى الرياض مرة أخرى..

وكم جدَّ في هذه الأثناء من جديد وكم تبدل من مظهر وكم تغير من مخبر وكم دلف إلى هذا العالم من أجيال وكم طوى آخرون وكم تبدلت المناظر والمظاهر.. إن هذا العصر من هذا القرن عصر المخترعات وعصر المفاجآت وعصر التبدل والتحول.. فهل ما يحويه هذا الكتاب من مشاهدات ومن انطباعات ومن سمات مر بها لا تزال هي هي لم تغيرها الأحداث ولم يبدلها مرُّ السنين.. لا بل لو أعدنا النظر في كثير مما سجل لوجدناه على غير حقيقته ووضعه..

فحينما سافرت من الرياض إلى مكة على طريق ترابية استغرقت الرحلة فيه مدة ومررت بمعالمَ وصُوًى لم يعد الطريق يمرُّ بها وكان المظهر على هذا الطريق كل الطريق متواضعاً بسيطاً لم نشاهد فيه للتطور ولا للتنوُّر أثراً.. وحينما دلفت إلى مكة وجدتها هي هي مبانيها ومعالمها وأزقتها والحرم الشريف على عهده القديم لم يطرأ عليه للعمران

أثر.. وهكذا الطريق بين مكة وجدة وهكذا مطار جدة وهكذا طائرة (الداكوتا) التي امتطيتها من جدة إلى دمشق في بساطتها وما كان عليه الطيران في ذلك الوقت.. وهكذا دمشق ومنظرها ومخبرها ومعالمها وأعلامها، كل شيء قد تغير وتبدل.. ما عدا الحقائق التي لم يبدلها الزمن ولم تغيرها الأحداث فهي باقية للزمن وللتاريخ وللحقيقة وأظن حتى الأسلوب الذي كتب به الكتاب طرأ عليه ما طرأ على غيره من ظواهر يجدها العارف باتباع نهج الأساليب..

لذلك فإن إعادة طبع هذا الكتاب سوف يجد فيه القارىء شيئاً من المتعة وشيئاً مما يشدُّه إليه رغم أنه لم يمض على طبعه أكثر من خمس وثلاثين سنة فكيف لو كان الأمر غير ذلك..

والمطبعة التي أخرجت هذا الكتاب في طبعته الأولى مرَّ عليها أكثر من شهرين في طباعته على نحو متواضع وبسيط.. الحرف والصف والإخراج هي مطبعة الرياض في عصرها الأول.

وكثير من الشخصيات التي تناولها هذا الكتاب في دمشق جلّهم قد لاقوا ربهم وقدموا إلى ما قدموا..

وجلّ ما ألّف من أجله هذا الكتاب تعبر عنه الأسطر في إهداء الكتاب:

(إلى الذين يجدون في أعمال الأمم الحية ما يلهب شعورهم، ويحفز هممهم، ويذكي فيهم روح التضحية والعمل ويهمهم أن هذه الأمجاد من صنع بشر مثلهم آمنوا بأن الحياة كفاح وتضحية وعمل.. فراحوا يصارعون الأهوال، ويتخطون الصعاب حتى خلقوا العجائب وقهروا الأحداث.

إلى شباب الجزيرة العربية أهدي هذا الكتاب ليشاهدوا فيه ما صنعته أيدي إخوان لهم في اللُّغة والدين والجوار والآمال والآلام عسى أن يكون لهم في هؤلاء أسوة وأن يكونوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ولعلَّ من المناسب أن نشير في إعادة طبع الكتاب إلى ما ورد في ثناياه من عناوين مهمة تناولها الكتاب بشيء من الإعجاب وحسن العرض.. فلعلك تقرأ فيه: (دمشق المسلمة) و(العروبة في دمشق) و(ملهمة الشعراء) و(الجامع الأموي) و(دمشق في التاريخ) و(العلم والتعليم) و(شباب الجامعة) و(الصحافة والأدب)..

وهكذا أنت مع هذا الكتاب في بحوثه ومعارفه عسى أن تجد فيه ما يلبي نهمك ويشبع رغبتك والله المستعان.

عبد الله بن محمد بن خميس

تمهيد

لا أدري هل أنا صاحب شعور خاصّ حينما أجدني مسوقاً إلى الكتابة كلّما ساورتني فكرة، أو سنحت مني نظرة؛ أو عنَّ لي رأي؛ أو شعرت بسرور أو ألم؛ أو أن هذا شعور مشترك ينكيه نداء الواجب؛ ويحفزه الشعور بالمسؤولية؟!

وسيان عندي هذا أو ذاك؛ فكلا الأمرين حسن. .

وهذا الكتاب؛ الذي أقدمه بين يديك؛ أيها القارىء الكريم؛ نتيجة لمزيج من الخواطر والأحاسيس برزت تحت تأثير هذه الظاهرة؛ التي أجدها من نفسي. . وما دمت قد عرفت داعي وجود هذا الكتاب بين يديك؛ فلا تؤاخذني إذا وجدت نفسك منه في طريق ملتوية قفر! أو أمام فكرة خاوية مبتذلة أو صادفك نشاز في الأسلوب؛ أو فجاجة في التعبير. . فذلك نتيجة حتمية لهذه المؤثرات التي طغت على نفسي ودفعتني إلى الكتابة. . وقد لا تحرك منك هذه المؤثرات ساكناً؛ أو تهز لك وجداناً. .

أما الأسلوب الذي استعمل في تسجيل هذه الأحاسيس فهو أسلوب ارتجالي جمع أشتات ما بين دِفَّتَيْ هذا الكتيِّب في شهر تتخلله التنقلات والاستكشافات وسائر الواجبات. .

وأخيراً ربما تطالبني بالمراجع التي صدرت عنها في بعض ما كتبت؛ أو بتحقيق نص؛ أو التأكد من أصالة كلمة. . وكل ذلك يحتاج إلى زمن يباعد بين الرحلة ووصول هذا الكتاب إلى يدك؛ ومما يجعل

أعمالنا المدرسية تداهمنا قبل الفراغ من طبعه فنرجئه إلى أجل غير مسمى.. وليس معنى هذا أنني حاطب ليل ألقي الكلام على عواهنه.. بل لقد حرصت على الأمانة في النقل، والدقة في التعبير، وتحرِّي الفصيح من القول والقريب الإدراك.. ومع هذا فلا أبرىء نفسي من الخطأ؛ ولا أعذرها بالبدار واستعجال الطبع..

ولكنك مع هذا ستجد في تضاعيف هذا الكتاب فورات ذهنية، وانطلاقات فكرية، وتجاوباً مع بعض ما تختلج به نفسك من أحاسيس، ويدور في مخيلتك من آراء.. ولعل هذا يكون حافزاً لك على مواصلة قراءة الكتاب وتنطُّس ما في ثناياه من فلتات، علَّها ترضي ذوقك، أو تشفع ـ على الأقل ـ لذوقي.

مقدمة

كانت الرحلات في الزمن القديم تعتبر مجازفة بالحياة، ومغامرة بالمال والوقت والراحة، سواء كانت لطلب علم أو تجارة أو سياحة، أو لأي غرض من الأغراض. وكان المسافر يجعل نصب عينيه حين عزمه على السفر عدم العودة إلى أهله، فكان يكتب وصيته؛ ويقضي ديونه، ويخرج كمن يريد أن يخوض المعركة، أو يركب متن البحر إبان هياجه واضطرابه.

هذا بالنسبة لمن يريد أن ينتقل من قطر إلى قطر في مصره الذي يعيش فيه، وبين أفراد شعبه الذين ينتمي إليهم، فما بالك بمن ينتقل من أمة إلى أمة، ومن شعب إلى شعب آخر لا يعرف لغته ولا عاداته وتقاليده، وبينه وبينهم بون شاسع، في الزي والدين والثقافة، مما يجعله بينهم أكلة سائغة، وعرضة للقضاء عليه، واتهامه بالتجسس والتبشير وأخذ الأسرار وسبر غور الأمة.

هذا إلى جانب ما يتكبده من عنت وإرهاق، في جوب الفيافي والقفار، والتعرض للفح الهجير، وبرد الزمهرير، والسير البطيء الممضّ، والغذاء الخشن الجاف، والماء العكر الملح، والمواصلات العقيمة القليلة الجدوى.

كل هذا وأمثاله يقف في طريق الرحالة سدًّا منيعاً، ولا يتجاوزه إلا مغامر متهور! ومع ذلك فقد امتطى متن هذا الخطر عدد ليس بالقليل أمثال الحموي وابن بطوطة والمسعودي، فجابوا الشرق والغرب

واكتشفوا الديار ونقبوا عن الآثار، ودونوا الأسفار، وأصبحت آثارهم صُوًى ومعالم يهتدي بها باحث القرن العشرين، ويستنير بضوئها من في استطاعته أن يطوف الكرة الأرضية في ساعات. فقد كانوا يضربون آباط الإبل من العراق إلى صنعاء وبالعكس لأجل رواية حديث واحد، وقد كانوا يضربون في مجاهل الأرض ويتتبعون آثار العرب في مرابعهم ومراتعهم لتدوين قصصهم وأخبارهم، وحفظ الفصيح من لغتهم وآدابهم وأشعارهم.

ولم تكن النقلة والأسفار خاصة بأهل العلم والأدب، ورجال البحث والآثار، بل قد كان لرجال التجارة، وأرباب الأعمال رحلات في الشتاء والصيف، يقوم بها رجال العرب بين الشام والحجاز واليمن، وقد كان لهذه الرحلات العلمية والتجارية أثر بارز في نقل ثقافات الأمم وآدابها، وحضاراتها ومدنياتها، ولغاتها وأخلاقها، ومصاهرتها وامتزاج بعضها ببعض، مما نلمسه في آداب العرب الأول وحضارتهم نتيجة لاحتكاكهم بالرومان والفرس وغيرهم.

وإذا كان هذا في زمن كانت الرحلات فيه ضرباً من التغرير بالحياة، وإلقاء بالنفوس إلى التهلكة، أفلا تكون الرحلة في زمننا هذا واجبة يقوم بها التاجر والزارع والصانع، فضلاً عن المثقف، ومن يعنى بدراسات أحوال الأمم واستطلاع شؤونها، سياسياً واجتماعياً وعلمياً؟ فمواصلات اليوم غيرها بالأمس، لأن الطريق الذي كان يغذّ الراكب المجدّ في قطعه عشرات الأيام والشهور أصبح الآن يقطعه في بضع ساعات، والزاد والنفقة اللتان كانتا تثقلان كاهل المسافر، وتحولان ـ غالباً ـ بينه وبين بلوغ هدفه، أصبحتا شيئاً ميسوراً لا يقام له وزن!

والمخاوف التي كانت تساور المسافر في طريقه، وفي البلاد التي يقصدها أصبحت أثراً بعد عين، نتيجة لتقارب أحوال الأمم ومفاهيمها، ورقيّها العلمي والاجتماعي، واستتباب الأمن فيها، ورهبة جانب الحكم بين سكانها، وارتباط بعضها ببعض عن طريق السفارات والمفوضيات، ومعاهدات الصداقة وتبادل المصالح، وعدم الاعتداء، ووجود نظام الجنسيات وجوازات السفر، وما إلى ذلك مما يحفظ على الفرد نفسه ومصالحه.

ودواعي الرحلة التي كانت بالأمس غير ذات أثر كبير، ولا رغبة ملحَّة بالنسبة لعموم الناس، وانحصارها في طبقة معينة وفئة خاصة، أصبحت الآن أكيدة ملحَّة بالنسبة للجميع، فأرباب الحرف والأعمال على اختلاف طبقاتهم، وتباين أعمالهم، بحاجة إلى استكناه ما جدَّ به العصر من مخترعات وطرق صحيحة في حدود أعمالهم، وفَّرت على الأمة كثيراً من الجهد والمال، وزادت في إنتاجها ومصالحها، فهم بحاجة إلى اقتباس ذلك عن كثب، ونقله إلى بلادهم ليفيدوا منه ويستفيدوا.

ورجال العلم والطبقة المثقفة المستنيرة التي بيدها توجيه الأمة، هم أشد احتياجاً إلى الرحلة، وأعظم مسؤولية فيها، فهم الذين يستطيعون أن ينقلوا إلى الأمة حسنات الأمم الأخرى، ويدرأون سيئاتهم، وهم الذين يعرفون مصادر النفع وأسباب الرقي والتقدم، ويدركون الطرق الصحيحة التي تؤدي بالأمة إلى الهدف الأسمى، والغاية المنشودة، كما يدركون أسباب الشر والطرق الملتوية، ليجنبوا الأمة ويلاتها، وهم الذين يستطيعون نقل هذه المعلومات بأمانة، وإدخالها في أذهان الأمة بوسائلهم العلمية المعروفة.

وما دمنا قد عرفنا أهمية الرحلات بالنسبة لسائر الأمم فيما بينها فلنا أن نعرف أيضاً أنها بين الشعوب والأمم التي تربطها وشائج القربى وتؤلف بينها عناصر كثيرة، وتجمعها وحدات شتى، أهمها وحدة الدين واللّغة والجوار، وتبادل المصالح عن قرب، هي بين هذه الأمم أكثر أَهمية، وأكبر فائدة، وأبلغ جدوى، وهذا ينطبق تمام الانطباق على الشعوب العربية التي تنطق لغة واحدة، ويجمعها ـ في الغالب ـ دين واحد، وبلادها مجموعة واحدة، وكلٌّ لا يتجزأ، وقد قاربت بينها الأحداث التي نكبت بها، والمشاكل التي أوجدتها يد المستعمر وخلقت منها وعياً جديداً وشعوراً أكيداً بالألفة والتقارب، وأدركت أنها باجتماع كلمتها وتوحيد صفوفها، ستكون مرهوبة الجانب قوية المعنويّة، مدركة لحقوقها وأهدافها. . ومن ثم أصبح التجاوب الفكري والسياسي والاجتماعي فيها ضرورة لا محيص عنها، وأصبح التفاهم الشخصي وتبادل الزيارات والرحلات، والاطلاع على سائر مقوماتها بين بعضها من الواجبات الأكيدة.

كما أنه لا يزال بعضها متخلفاً عن ركب البعض الآخر من الناحية العلمية والاجتماعية، ولدى بعضها إمكانيات مادية في استطاعة البعض الآخر الاستفادة منها بوساطة إمكانيات أخرى زراعية وصناعية وعلمية، وليس أدعى إلى ذلك من طريق المشاهدة والتفاهم والامتزاج.

ولم يزل التفكير في الرحلة إلى الأقطار العربية حلماً يداعبني منذ أمد، ولكن ظروفي لم تخولني أن ألبّي هذا النداء الشيِّق، إلا في هذا العام وفي الوقت الذي وضعت فيه عبء العمل عن كاهلي بانتهاء العام الدراسي، كان شهر رمضان المبارك على الأبواب، وهو شهر عبادة

يتطلب الراحة والاستقرار، بينما الرحلة تتطلب النقلة والاستطلاع، وشتّان ما بينهما، ولكني عملت لذلك حلاً وسطاً في نظري، لا يغمط الشهر المبارك حقه، كما لا يحرمني من وقت أستطيع أن أستفيد منه في رحلتي.. فقررت أن أقضي شهر الصوم جميعه في دمشق، فالجو فيها معتدل؛ فنحن لا نزال في شهر نيسان، ففي استطاعتي أن أؤدي العبادة مع عمل تنقلات واستكشافات واتصالات هادئة قريبة حتى إذا أدبرت دولة الصيام وإذا بي قد انتهيت من دمشق، وأزمعت المسير إلى بلاد أخرى..

وهكذا اختمرت الفكرة وتأكّد العزم.. فإلى دمشق:

بدء الرحلة

كان اليوم الأول من شهر رمضان قد أدركني في مكة المكرمة وكان نهاية لسلسلة تنقلات بدأت من الأحساء فالرياض والدرعية فجدة ومكة، وكان الحر قد بدأت طلائعه تفد إلى مكة، وأهبة السفر تقتضيني عملاً متواصلاً لا هوادة فيه حتى كانت الساعة الحادية عشرة بالتوقيت العربي من مساء ذلك اليوم حيث كان الإعياء قد بلغ مني مبلغه، فلجأت إلى الحرم الشريف وإذا الهدوء يخيم عليه ولم أعد أسمع إلا هينمة الطائفين وتلاوة التالين، وأرى مئات الصفوف آخذة أمكنتها من ساحة المسجد ومتجهة بأبصارها نحو البيت العتيق وأمام كل صف صف يماثله من الدوارق المملوءة بماء زمزم، فشعرت أنني في جو روحاني خالص وفي عالم آخر إنساني التعب والوصب.. والحق انه مشهد عجيب يعبر عن جلالة الإسلام وسموه ويبعث في النفس نفحات علوية تسمو بها إلى معارج الجلال والكمال.

كان عليَّ أن أذهب إلى مطار جدة تلك الليلة لأحجز مركبي في أول طائرة سعودية تسافر إلى دمشق؛ فبعد أن تناولت طعام الإفطار قصدت مطار جدة فوجدت أن الطائرة لا تسافر إلا بعد يومين وأن هناك طائرة ستسافر بعد بضع ساعات إلى بيروت فرأيت أن لا مانع من السفر فيها، فما أقرب بيروت من دمشق، فسجلت اسمي ضمن ركاب هذه الطائرة وذهبت لإنهاء بقية لوازم السفر، ولحسن الحظ التقيت صدفة بحضرة الصديق الأستاذ أحمد العلي المبارك مدير التعليم بجدة فكان لي نعم المعين تلك الليلة، كما هي عادته.

وفي تمام الساعة الثانية عشرة كان ركاب الطائرة قد اكتملوا فيها، وحينئذ استقلت من أرض المطار، وهي ذات محركين من نوع (داكوتا)؛ وكانت ستهبط بمطار المدينة، فأخذت طريقها في جو هادىء وسماء صافية. وبعد أن توسّطت فوق سلسلة جبال تمتد من الغرب إلى الشرق قبل حرار المدينة ـ وأظنها سلسلة جبال «مستوردة» ـ خرج علينا الطيار ومساعداه من غرفة القيادة وجعلوا ينظرون جميعاً إلى قمة جبل تركته الطائرة شمالها، وكانت القمة جميعها بيضاء يققة فدفعني حب الاستطلاع إلى سؤالهم عن هذا الذي لفت أنظارهم، فأجاب قائد الطائرة ـ الكابتن ـ (وكان أمريكياً ينطق العربية بصعوبة): إنه ثلج هبط على قمة هذا الجبل. ولم تجر العادة أن يهبط فيه الثلوج، وهو زمن الشتاء، فكيف بزمن الربيع؟ ولكن ذلك نادر يستلفت النظر. والحق أنه ليس ثلجاً بالمعنى الذي يفهمونه والذي يتساقط على جبال أوروبا وأحياناً على جبال الشام على شكل العهن المنفوش.. ولكنه برد (بفتح الباء والراء) نزل من سحابة سارية على هذه الأرض فذاب منه ما كان في بطون الأودية وما غمرته الجبال، وبقي ما طوق هذه القمة كأنه عمامة شيخ من الزنج، ليذوب عندما ترسل الشمس أشعتها إليه.

وبعد ساعة ونصف من جدة كانت الطائرة تهبط بنا في مطار المدينة فنزل بعض ركاب الطائرة وركب آخرون ثم استأنفت الطيران، وكنت منذ بدت لنا جبال المدينة وحرارها وفي مقدمتها (أُحد) الجبل الذي قال عنه منقذ البشرية: «إنه جبل يحبنا ونحبه». وحينما بدت لنا مآذنها السامقة وبساتينها الفيحاء؛ منذ ذلك الوقت حتى اختفت معالمها، وأنا أستعرض في ذهني ما شهدته هذه البقاع الطاهرة من نور شعَّ بين أرجائها غيَّر وجه التاريخ، وامتد حتى بلغ الشرق والغرب وأنقذ أمماً وأطاح بعروش

ظالمة، وأستذكر ما دار في هذه الثنايا والحرار من جهاد أبطال وهبوا لله نفوسهم في نصرة الحق وإعلاء كلمة الله ونزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ . .﴾ أستذكر تاريخ أولئك وأنقلب خاسىء الطرف إذا تذكرت ما نحن فيه اليوم وقد أصبحت رؤوسنا مداساً لأرجل أعداء الله ونحن أكثر عدداً وعدة وأموالاً وأنصاراً، ولكننا غثاء!

لقد أخذت الطائرة ارتفاعها المعتاد وكانت أحوال الجو مناسبة فخرج علينا مضيف الطائرة متأبطاً «خيراً» مجموعة من «العلب» داخلها طعام شهيّ، وكان الصائمون في الطائرة أقل من القليل، وبعد أن تناول من تناول منهم طعام الإفطار ـ إفطار الصباح طبعاً ـ أخذ النعاس يغشاهم، وإذ بمساعد الطيار يخرج من غرفة القيادة وبيده مصحفه، فأخذ مكانه من صدر الطائرة وجعل يتلو كتاب الله، فكانت ظاهرة حميدة سررت لها وأعجبت، وكان حولي شاب أسمر اللون يرتدي بزة عسكرية تحمل بعض الأنجم فأدركت أنه من ضباط جيشنا، وكان منهمكاً في مطالعة كتاب في اللغة الإنجليزية وعندما وضع الكتاب حاولت أن أفاتحه ببعض الكلام ولكن أزيز الطائرة المدوي لا يمكنني من محادثته محادثة هدوء وسكينة، فكتبت إليه العبارات التالية: «أخي الكريم؛ أنت من رجال الجيش، فما هي صفتك في هذه الطائرة وقد رأيتك ممتزجاً بملاحيها ومشاركاً لهم في بعض أعمالهم، وهل هناك من أبنائنا ـ رجال الجيش ـ من نجح في قيادة الطائرات الحربية؟ وإذا كان نعم فما عددهم؟ وهل هناك من أبنائنا ـ أيضاً من نجح في الطيران

المدني؟ وهل هناك بعثات لنا في الخارج تتعلم هذا الفن؟».

«فتفضل مشكوراً وأجاب: أخي الكريم، أشكركم على هذا الشعور، وأحب أن أخبركم أني أحد رجال سلاح الطيران الملكي السعودي، ويوجد في سلاح الطيران حوالي ٢٤ ضابطاً طيارين ممتازين يقودون طائرات مدنية بمفردهم، ويسافرون بها إلى أي بلد كان وفي أردأ الأجواء، وفوق ذلك هم متفوقون في قيادة طياراتهم الحربية، ويوجد لدينا في جدة مدرسة لتخريج الطيارين الحربيين وأنا من ضمن معلميها، كما أن هناك بعثة مكونة من ثمانية أشخاص يتعلمون فن الطيران في أمريكا أما أنا في هذه الرحلة فإني أحد الركاب فقط لأنه توجد لدي إجازة سوف أقضيها في (بيروت)».

«أخوك ـ محمود مراد»

وبعد أن انتهى الحديث التحريري مع صاحبي كان جو الطائرة قد ساده الصمت المطبق وطفق أكثر ركابها يغطون في نوم عميق لم يلبث صاحبي أن شاركهم، أما أنا فلم تجر العادة أن يجد النوم سبيلاً إلى عيني في الطائرة أو السيارة، فظللت أشاهد الفضاء الواسع والبيد المترامية الأطراف من نافذة الطائرة «إذا مضى علم منها بدا علم» كما يقول أبو الطيب. . وجعلت أفكر في هذه المجاهل التي تتخلل أنحاء المملكة وتشكل القسم الكبير منها متى سيشملها العمران وتمتد إليها يد الفلاح والمهندس والعالم، ونرى سكان المملكة عشرة أضعاف عددهم الآن ليضربوا في هذه الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله!؟

وأخيراً تغيرت معالم الأرض وخرجنا إلى سهل منبسط لا عوج فيه

ولا أمتاً. . ولم ألبث حتى بدا لي في الأرض خط أسود مستقيم يأتي من ناحية الشرق إلى الغرب، فعلمت أنه خط شركة (التابلاين) الواقع على الحدود السعودية.

وبعد قليل بدت لي الأرض مخضرة وجعلت ألمح فيها علامات الحرث، وطرق السيارات تتخللها، ثم بدت لي بعض القرى والمزارع وسألت المضيف: أي أرض هذه؟ فقال: هذه سورية وسوف نكون بعد دقيقة فوق سماء دمشق. وفي هذه الأثناء بدا جبل «قاسيون» الجبل المطل على دمشق من الناحية الشمالية والذي تقع كثير من بيوت دمشق في سفحه؛ وإذا بدمشق تبدو في حلتها الخضراء وقد كساها فصل الربيع جلالاً وجمالاً، فخطر ببالي قول حسان:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

ولكن سرعان ما خرج علينا مضيف الطائرة وأمرنا أن نشد الحزم على أوساطنا فقد أقبلنا على جبال سورية ولبنان وقد تجللت بالسحب والثلوج وسوف تأخذ الطائرة ارتفاعها فوق هذه السحب والجبال. وهنا انقلب ذلك الطيران الهادىء الرتيب إلى شكل آخر فقد علا هزيم الطائرة وبدأت تعلو وتسفل، وتتأرجح يمنة ويسرة، وولى النوم هارباً عن ركاب الطائرة، وإذا بالأرض قد احتجبت عنا، سهلها وحزنها بحجاب كثيف من السحب والطائرة تشق طريقها في هذا العالم العلوي المتكاثف بعنف وشدة وتصارعه مصارعة المستميت على اتجاه واحد، ثم بدأنا نلمح من بين فجوات السحب خضرة الأرض ثم تكشفت لنا بيروت بين جبل سامق عملاق وبحر لُجِّيٍّ خِضَمٍّ فهما لها بمنزلة الجناحين للطائر.

والحق أنني حيال هذا المشهد الرهيب في أجواز الفضاء، وفي عنفوان هذه المصارعة بين الطائرة والمؤثرات الجوية قد أكبرت من قدر هؤلاء الذين خدموا الإنسانية إلى هذا الحد وسمت بهم أفكارهم ومداركهم إلى منزلة ما كان يدور في الخلد أن ينالها إنسان ولكنه العلم! فمتى نأخذ منه بالسهم الوافر والنصيب الأوفى؟!

وأخيراً هبطت بنا الطائرة في مطار بيروت العالمي، وتلقفنا حشد من موظفي المطار، غالبهم من الجنس اللطيف؛ وفي برهة من الزمن قصيرة أنهوا ـ أو أنهين ـ معنا الإجراءات اللازمة، بلطف وبشاشة، تستشف منهما أثر الاصطناع، وعلى كل فهي ظاهرة حميدة ويا ليت كل أمة يوفق موظفوها إلى المرونة ومخالقة الناس، ولو بالتكلف والاصطناع!

كنت أحمل في مفكرتي اسماً لأحد الفنادق في بيروت هو فندق «ريجنت»، احمل هذا الاسم من الرياض، فقلت لسائق السيارة ـ وما أكثر السيارات في بيروت ـ: على «ريجنت». فقال عبارتهم التقليدية: (تكرم خيي)، وما كاد يتمها حتى انطلق كالسهم من القوس، فحسبت به مساً من الجن والتفت إلى أحد الطلبة الذين قدموا معنا في الطائرة ـ وكان يدرس في إحدى مدارس لبنان وهو عائد من إجازته ـ فقلت: ما بال هذا؟ فقال: لا تعجب فهذا عندهم سير عادي! ففوضت أمري إلى الله.

ووصلنا إلى الفندق في طرفة عين.. وإذ بموظفيه يقابلوننا ببرود وكان السبب اكتظاظه بالنزلاء. وعدم وجود محل فيه للزبون الجديد. وإذن فلا بد من أن ألتمس فندقاً قريباً أقضي فيه سحابة يومي وليلتي قبل سفري إلى دمشق، فكان أقرب فندق هو «ناسيونال» بساحة البرج ـ ولا

تعجب من هذه الأسماء «ريجنت» و «ناسيونال» فلغة الذوق والجمال في بيروت هي اللغة الأجنبية، فعليك أن تلزمها لتكون ناجحاً، أما اللغة العربية فهي في طريقها إلى الفناء ـ وهكذا غيرها من السمات الشرقية والعربية، فالباب مفتوح والحبل على الغارب.. وكل يعملّ على شاكلته.. وخيبة الأمل تنتظرنا!

لقد استقبلنا موظفو «ناسيونال» استقبالاً حاراً وأنزلونا حيث طاب لنا أن ينزلونا، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة بالتوقيت العربي وهو ما كانت عليه ساعاتنا من المملكة وإلا فلا تظن أنك ستجد للتوقيت العربي ذكراً هنالك.. وليس هذا محل الاستغراب، بل محله أن هذه المدينة العظيمة المترامية الأطراف، الشرقية الإسلامية العربية ـ في الاسم ـ لا تكاد تحس فيها بشهر رمضان.. فالمطاعم والمقاهي قائمة على أشدها، والسجاير لا تفارق أيدي المارة وأصحاب الحوانيت والمتاجر، والموائد تمد في الفنادق والبيوت ولا تكاد تحس أنك في جو يصوم فيه واحد في المائة..

لقد حان وقت الإفطار فطلبت من النادل (الجرسون) أن يقدم طعام الإفطار فأجاب أن هذا الوقت غير وقت أكل فالغداء قد مضى وقته، والعشاء لم يحن وقته بعد (فشو بتريد عيوني فاكهة؟؟) فقلت التمس لي طعاماً من السوق. فجاء بالطعام. وبقي أن أعرف غروب الشمس، وأذان المغرب، فساعتي اليوم لا تعطيني الحكم الصحيح على الغروب لأن عرض البلاد قد اختلف. والأفق قد حيل بيني وبين رؤيتها فلا بد أن أنتظر حتى يظلم الليل وحينئذ أتأكد غروب الشمس. ولكن (الجرسون) أدرك المشكلة فخرج بي إلى طنف (بلكون) بجانب الغرفة وأراني مئذنة

سامقة وقال: إنه بمجرد ما تغرب الشمس تضيء أنوار هذه المئذنة، فظللت أرقبها حتى أضاءت ومن ثم أفطرت.

بقيت الآن مشكلة السحور. ففي الأسحار هم نائمون، بل هم في المرحلة الأولى من نومهم ويبعد أن يوقظوني، وأنا متعب وفي حاجة إلى النوم، فلأحضر عندي ما تيسر من أكل ولعلي أقوم وقت السحر من نفسي.. ولكن جلبة السيارات وضجيج الغادين والرائحين لم يمكناني من النوم في ثلث الليل الأول، وأخيراً استغرقت في نوم عميق لم أفق منه إلا قبل طلوع الشمس بقليل. وحينئذ طبقت رخصة السفر وإن كنت قد بيَّتُّ النية من الليل، فصومي متعذر اليوم، ولربما أسافر إلى دمشق في نفس اليوم.. ولكنني انتهزت فرصة الإفطار، وجعلت أستطلع ما حولي في بيروت من الأسواق الرئيسية والميناء وبعض دور العلم والنشاط الرياضي، إلى غير ذلك. إلا أنها جولات خفيفة لا تعطي فكرة صادقة ولا حكماً صحيحاً، في النواحي الاقتصادية والعلمية والعمرانية.. ولعل لنا عودة إليها، فنوفيها حقها.

وعلى وجه العموم، فلبنان تمتاز بمناظرها الطبيعية الجميلة، فكلها ترتدي حلة سندسية خضراء، ومياهها عذبة دفاقة، وجوّها معتدل جميل، والبحر يداعبها من ناحية والجبل يضفي عليها جمالاً ورونقاً من ناحية أخرى، وفي أخلاق أهلها مرح ولطف وخفة ظل.

إلى دمشق

وفي اليوم التالي أزمعت الرحلة إلى دمشق، وكثيراً ما يبدو لك من رفقاء السفر غرائب وعجائب، فلقد ركبنا في سيارة صغيرة وعددنا خمسة نفر، كان من بيننا سائح إيراني قد اشتعل رأسه شيباً، وكان مسلماً وعلى جانب من علم الشريعة الإسلامية؛ وينطق العربية بضعف، وكان مذياع السيارة ينبع تلاوة قرآنية، فعلق هذا الإيراني على بعض الآيات بما لا أتذكره الآن؛ ومن هنا بدأ البحث وأظن أن الرجل شيعي؛ فأخذ في إيراد أحاديث وقصص أغلبها لا نصيب له من الصحة، وبعضها فيه طرافة وأدب، ولكن على ما يظهر أنه معتدل في شيعيته، فقد كان يناقش مناقشة علمية متزنة، ويرضخ للحق، ويعترف بأن غالب هذه الأحاديث التي وضعها الشيعة لا نصيب لها من الصحة؛ والمهم أننا قطعنا جزءاً كبيراً من الطريق في بحث علمي مفيد.

وكان الطريق من بيروت إلى دمشق يمر بكثير من مصايف لبنان الشهيرة؛ وكان الربيع قد خلع على هذه الجبال والوهاد والسفوح حللاً من الخضرة والنضرة وأردية من الزهور المختلفة الأشكال والألوان يبعث إلينا نسيم الصباح البارد منها أريجاً عبقاً فواحاً يدخل على النفوس البهجة والفرح والسرور. وكانت السيارة أحياناً يشتد أنينها ويبدو قلقها حينما تريد قهر الجبل المشمخرِّ أمامها، وحيناً تنساب في هدوء وصمت كانسياب الأفعى حينما تريد أن تتخلى عن القمة التي صرعتها، وكان الطريق من بيروت إلى دمشق معبداً من ألفه إلى يائه. وكانت سكة القطار الرابطة بين دمشق وبيروت تظهر لنا تارة وتختفي أخرى، وطوراً تلج في

نفق في الجبل من جهة لتخرج من جهته الأخرى.

وها نحن الآن قد وصلنا الحدود اللبنانية السورية، وها هم موظفو الحدود اللبنانية يعاملوننا بمثل معاملة موظفي المطار في التسهيل وسجاحة الخلق.. وبعد قليل وصلنا موظفي الحدود السورية، فاجتمعنا حول مكتب تأشيرة الدخول، وكنت أنا الوحيد الذي يرتدي اللباس العربي وكان قد جاء دوري حسب الأول فالأول، ولكن الموظف ـ سامح الله من جعله موظفاً في هذا المكان ـ كان كلّما حدجني بنظرته الشزراء ونظر بزتي العربية ازورَّ عني إلى غيري وترك يدي ممدودة بالجواز إلى حضرته، فلما رأيت الأمر هكذا انتحيت مكاناً من المكتب وجلست حتى أتى على آخر الحاضرين، ثم قمت إليه فمد يده متثاقلاً؛ ووضع الإشارة وناولني الجواز قائلاً «راجع الأمن العام في دمشق» فقلت: هل يلزم مراجعتهم فور وصولي؟ فقال وهو يفارق المكتب بلهجة مائعة «ما بعرف».

والشيء بالشيء يذكر؛ فهنا قصة مماثلة لا بأس من إيرادها، عسى أن يكون فيها عظة لقوم يعلمون:

كنت حينما وصلت دمشق وقع في يدي كتاب للأستاذ أبي الأعلى المودودي، فأعجبت به وأردت بعثه إلى أحد المشايخ هناك، فجعلته في ظرف وكتبت عليه «مطبوعات» لأجل التخفيض في أجرة البريد، ودفعته إلى موظفة البريد؛ وكانت سيدة تدعى.. وقد أرهقها تكاثر العمل، فاعتبرته خطاباً مسجلاً، فأردت أن أفهمها، فقذفت بالكتاب ليقع بين عيني؛ فأخذته وانصرفت؛ فلحقني أحد موظفي البريد وطلب مني الصفح. وكان يظن أنني سأقيم الدنيا وأقعدها لأنتصر لنفسي، وما علم

أنني قاصد إلى مركز آخر من مراكز البريد لأودع فيه الكتاب وكفى، فلن يصلح العطار ما أفسد الدهر. ولكنه أخذ الكتاب وأنهى المسألة. وكل ما تطلبه هذه الموظفة هو تمزيق جانبي الظرف لتعرف أن داخله مطبوعات بحق.

مضينا في طريقنا عبر الأراضي السورية، وبينا نحن سائرون وعلى مقربة من ضواحي دمشق قابلتنا سيارة صغيرة اعترضت طريقنا ووقفت ونزل منها ثلة من الشباب أوقفوا سيارتنا واجتمعوا حولها، وجعلوا يمطرون السائق بسيل من التأنيب والشتائم لا أفقه منها شيئاً لأنها بلغة شعبية وبألفاظ تدخر لمثل هذا اليوم، إلا أنني أدركت من تمعر الوجوه وانتفاخ الأوداج وحركات الأيدي أنه سباب فظللنا معشر الركاب صامتين، والسائق يحاول التنصل والاعتذار وهم يزدادون تقحماً وتوبيخاً. وما كنا لنتركه ـ في اعتقادي ـ لو مدوا أيديهم إليه، وبعد لأي انسحبوا والقضية لا تزال مجهولة بالنسبة إلينا، فسألته بعد أن أطلق العنان لسيارته «ما هو الأمر؟» فأجاب «يخرب بيتهن. عندهن إضراب وأنا (ويقسم بشرفه) ما بعرف».

كان أصحاب السيارات المعدة للأجرة وحافلات (باصات) النقل في عموم سوريا قد عملوا إضراباً عاماً وقدموا احتجاجاً إلى الحكومة يطلبون فيه إنصافهم في حقوقهم ـ المهضومة ـ كما يقولون. وقد تعطلت حركة النقل في سوريا وانشلَّت حركة المرور.

ولم نمكث قليلاً حتى قابلتنا سيارة أخرى أوقفتنا وحدث من أهلها نفس الشيء الذي حدث من أولئك إلا أنهم بعد ما طاب لهم أن يتركونا أسدوا إلى السائق نصيحة كانت في صالحه وضدنا، فلقد قالوا له: ضع

الركاب في «الربوة» واربأ بنفسك وسيارتك فإنهم سيحطمونها إن دخلت بها البلاد، ولكنه رابط الجأش صعب الشكيمة، فمضى في طريقه، ثم سلك طريقاً غير الرئيسية حتى وضعنا في طائفة البلاد. والمشكلة لا تزال باقية، فالبلاد مجهولة بالنسبة لي، ولم تكن الفنادق فيها تعد على رؤوس الأصابع ليعرف عنوان الفندق الذي قصدته بسهولة، والمواصلات معطلة. وبينما أنا أسير في الطريق على غير هدًى وإذا بسيارة تابعة للسفارة السعودية فاستوقفتها وهداني صاحبها إلى الصديق الأخ فهد المارك، ومن ثم انتهت المشكلة.

كنت أحمل عن دمشق من قبل فكرة البلاد التي لم تأخذ نصيبها بعد من التقدم والرقي، فالاستعمار لم يرفع يده عنها إلا منذ زمن يسير لا تتمكن فيه من النهوض والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم.. ودخلها القومي محدود لا فضل فيه لبسط اليد وخلق المشاريع التي تنهض بالبلاد وتزيد في إيراد الحكومة وتفتح أمامها آفاقاً اقتصادية وعمرانية كبيرة.

وطاقتها العلمية محدودة.. كل الأسباب التي تعطي الأمة قدرة كاملة وتفتح أمامها المجال لتثبت وجودها بين الأمم قاصرة جداً بالنسبة لسوريا. ولكن الشعب السوري شعب حي يقظ أنضجته مساوىء الاستعمار، وخلقت فيه روح التضحية والعمل، روح التفاني للوطن والإخلاص له.. فرُبَّ ضارة نافعة، لقد لمست في الشعب السوري معاني وطنية سامية، وأدركت أنه شعب صالح للحياة والتقدم يبني أسسه اليوم لمستقبل زاهر مجيد يحتله في الغد. وهذه المعاني هي ثروات الأمم وهي نقطة الارتكاز لأمة تعمل للمستقبل. إن طاقة الشعب السوري الروحية هي الدخل الأكبر، وهي الذهب الأسود والأحمر، وهي التي

ستخلق من سوريا دولة مثالية مرهوبة الجانب، كبيرة القيمة.

لم تكن دمشق منذ بضع سنوات سوى مدينة أثرية يعيش أهلها في شبه الأطلال، وتغمرها الفاقة والانحلال في شتى القوى ما عدا القوة الروحية، فلقد أقضُّوا مضجع الفرنسيين على ما هم عليه من قوة وبطش، وعلى ما عليه السوريون من ضعف ومتربة، فكان أولئك يسددون الحراب ويصوبون البنادق وينسفون المباني؛ وهؤلاء سلاحهم الحجارة والعصي، ومع ذلك فقد استطاعوا أن يقذفوا بهم في البحر إلى غير رجعة وأن يطردوهم طرد الكلب سرق أهله.

إن الذين عملوا هذا العمل هم الذين خلقوا دمشق من جديد، وهم الذين جعلوا جزءاً كبيراً منها الآن جنة فيحاء؛ وسيتلوه الجزء الآخر عن قريب. ما كنت أتصور أن حياً كحي المهاجرين وأبي رمانة وشارع بغداد وشارع النصر وشارع الربوة وشارع أبي فراس وغيرها من الأحياء، والشوارع العظيمة الممتازة توجد في دمشق. وما كنت أتصور أن هذه الحدائق الغناء المنسقة أجمل تنسيق وأحسنه، وهذه الميادين الرحبة التي تعطي البلاد روعة وجمالاً ومتنفساً تجد فيه المدينة انطلاقاً وتحليقاً.

ما كنت أظنها توجد في دمشق، وما كنت أظن أن هذه النهضة العلمية والاقتصادية والعسكرية والصحية والزراعية والاجتماعية.. ستكون بهذه المثابة في دمشق.. إنني لا شك معجب بالشعب السوري كمجموعة متماسكة البناء ثابتة الأركان، ولولا أن وحدات هذه المجموعة صالحة لما كوّنت كياناً صالحاً وأسًّا متيناً.

وبعد فلقد ألقيت عصا التسيار في دمشق واستقر بي النوى طيلة شهر رمضان المبارك، فلا بد لي من تنفيذ برامج الرحلة وتحقيق الهدف

منها وإشباع الرغبة الملحة لاستكناه ما في دمشق من مخبآت وكنوز، فلا بد أن أعرف دمشق كمدينة أثرية موغلة في القدم، مرت عليها أمم وأجيال، وتعاقب عليها ملوك وأقيال، وشهدت حرباً وسلماً، ورخاء وشقاء، وعدلاً وجوراً، فحفل تاريخها بهذه المتناقضات وبقي من آثارها ما فيه عبر وعظات؛ فهناك الجامع الأموي، وقصر العظم ودار الآثار، والمكتبة الظاهرية و. . . و. . . إلخ.

ولا بد أن أعرف دمشق أيضاً كغادة ناشئة تلمح بين عينيها بريق الأمل، وتستشف من ملامحها عرامة الفتوة وفورة الشباب، وتنظر إليها شاخصة الطرف نحو السماء كأنما تريد أن تتربع على جوزائها، فلا بد أن أعرف دمشق المتعلمة والزارعة والمقتصدة، ولا بد أن أعرف دمشق في مجال الطب والتصنيع والصحافة والتجارة، وسائر ما تتطلبه النهضات الحديثة، كل شيء أريد أن أعرفه عن دمشق، فهل يتسنى لي ذلك؟ وهل أوفق إذا عرفته لأن أشرك قرائي الكرام معي في هذه المعرفة وأصورها لهم التصوير الصادق القريب؟ سأحاول ذلك ولكن التوفيق ليس بيدي.

على أني إذا عرضت لهذه النواحي لا أريد أن أستقصيها من جميع نواحيها وأدرسها دراسة تحليل وتدقيق، وإنما أرمي إلى تصوير مشاهداتي وانطباعاتي في هذه المدينة، وفي جميع ما سأكتب عنه مما يلفت النظر، ويسترعي الانتباه، ويكون فيه مصدر لحفز الهمم وإيقاظ الشعور، وتنبيه من يستحق التنبيه والتذكرة.

دمشق في التاريخ

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن دمشق أول مدينة بُنيت في العالم بعد طوفان نوح عليه السلام الذي تحدث عنه القرآن؛ حيث أسس أول حائط فيها، وهذا يرجع إلى خصوبة أرضها وقابليتها الكبيرة للسكنى، فقد كانت جنة وارفة الظلال منذ قديم الزمان.

ويرجع تاريخ عمارتها واكتظاظها بالسكان إلى ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام، ومع كونها خصبة غنية فهي تقع على ملتقى الطرق بين الجزيرة العربية والعراق ومصر والمناطق الساحلية وكانت في الحكم العثماني نقطة تجمع للحجاج في كثير من المناطق الشمالية وغيرها ليعبروا الجزيرة العربية إلى مكة ومنها خصوصاً بعد إنشاء السكة الحديدية.

وقد كانت - قبل - عاصمة للمملكة الآرامية فيما قبل ألف وخمسمائة للميلاد.. ثم انتقلت إلى حكم «البابليين والأشوريين والفرس، ثم وقع عليها صراع بين البطالسة والسلوقيين دام مدة من الزمن، وبعدئذ امتدت إليها يد العرب الذين كانوا يصاقبونها في الجزيرة العربية ويحاولون أن يجعلوها مركزاً لهم، فاستولوا عليها في زمن الحارث الثالث ملك النبيط، ثم أخذها منهم الرومان وسموها دمشق الجميلة المقدسة، ثم استردها العرب المسلمون بعد وقعة اليرموك هي وكثير غيرها من مدن الشام، ولم تزل محل عناية العرب والمسلمين حتى أصبحت عاصمة الدولة الأموية عام ٤١ هجرية، وكانت ملتقى وفودهم

ومطمح أنظارهم، وأخذت تتعرب شيئاً فشيئاً حتى أصبحت عربية صرفة في الدين واللغة والعادات، ولم يزل ملوك العرب وأمراؤهم يتعاقبون عليها حتى وقعت في يد الأتراك مدة من الزمن أضعفتها وأنستها خصائصها ومميزاتها؛ وبعدها امتدت إليها يد الفرنسيين بعد أن قسم المستعمرون البلدان العربية فأنهكوا قواها وسلبوا خيراتها؛ وحاولوا إضعاف روح الدين واللغة بين أهلها، ولكن بفضل عقيدتهم الراسخة وعربيتهم الأصيلة، لم تلن منهم قناة ولم يفلّ منهم حدّ أمام هذه الطغمة الغاشمة، فلم يزالوا يقاتلونهم قتال المستميت حتى سلموا لهم بلادهم عن يد وهم صاغرون ومن ثم أصبحت سوريا جمهورية عربية تتمتع بسيادتها واستقلالها وتطمح إلى مستقبل مشرق زاهر، وأصبحت دمشق الفيحاء عاصمة لها، فهي الآن تحاول أن تجعلها عروس الشرق ودرة تاجه.

أول خلق معماري في الإسلام
الجامع الأموي

آية من آيات الفن الرفيع؛ وأعجوبة من عجائب الدنيا، ودليل صارخ على ما للمسلمين من عظمة ومجد في إبداع الفن المعماري. لا تذكر دمشق إلا ويقفز إلى الذهن ذكر مسجدها الخالد ولا يجري ذكر الآثار الإسلامية إلا ويأتي في مقدمتها مسجد بني امية.

وعظمة هذا المسجد قائمة ـ كما يقول المؤرخون ـ على أمرين هما: الأصالة في التخطيط؛ وتجاوزه حد الإتقان في زخرفته وتزويقه مما جعل المأمون الخليفة العباسي حينما دخله ومعه المعتصم ويحيى بن أكثم فقال لهما: ما أعجب ما في هذا المسجد؟

فقال المعتصم: بقاء دهانه؛ فإننا حينما نضع الدهان في بيوتنا لا يلبث حتى يتغير ويتلاشى، أما هذا فلم يزل كأنما وضع الآن.. فقال المأمون: لا.

فقال يحيى: العجب يأتي من تأليف رخامه والإبداع في ذلك، فقال المأمون: كلا، فإن العجب يأتي من بنيان هذا المسجد على غير مثال سبق.

كان في مكان هذا المسجد في قديم الزمان معبد لليونان يسمى «إلٰه المطر والعاصفة»، أما في عهد الرومان فقد قام مقامه معبد (جوبيتر) الإلٰه على ما يزعمون.

ولما جاء عهد الفتح الإِسلامي سنة ١٤هـ كان لا بد للمسلمين من إقامة مسجد تؤدى فيه الصلاة، فأقاموا مسجداً في قسم من صحن هذا المعبد وفي الجنوب الشرقي منه. وظلوا كذلك يصلون إلى جانب الكنيسة حتى جاء زمن الوليد بن عبد الملك فضاق المسجد بالمصلين؛ وتأذى المسلمون بنواقيس النصارى فطلب الوليد إليهم إعطاء الكنيسة ليجعلها مسجداً، وأغراهم ببذل الأموال والإقطاعات فلم يجيبوه إلى طلبته، فأخذها الوليد ودفع العوض وجمع المسلمين لهدمها.

ثم شرع في البناء عام ٨٧هـ وأتمه عام ٩٧هـ فكانت مدة البناء ١٠ سنوات. وطول هذا المسجد من الشرق إلى الغرب ٢٨٠ خطوة وعرضه ١٧٥ خطوة منها داخل المسجد ثلاثة أروقة مساحة الرواق ٢٥ خطوة وصحن الجامع ٨٩ خطوة والرواق الشمالي ١١ خطوة[١].

وللمسجد ثلاث منائر، اثنتان في جناحي القبلة الشرقي والغربي وتحت كل واحدة منهما برج قديم بني قبل المسجد وثالثتهما تدعى (العروس) تتوسط حائط المسجد الشمالي، وفي أسفل المئذنة الغربية قاعة لقاضي الحنابلة يستريحون فيها إذا دخلوا من الصالحية إلى المدينة.

وله مدخلان رئيسيان أحدهما باب (جيرون)، من الشرق؛ والآخر باب (البريد)، من الغرب، ويفضيان إلى ساحة كبيرة هي صحن المسجد، ويقع على جنباتها الثلاثة أروقة قائمة على أعمدة. أما الجانب الجنوبي من هذه الساحة فيقع فيه المصلى، وهو مستطيل رحب يتألف من ثلاثة أروقة تمتد من الشرق إلى الغرب، يقطعها في وسط المسجد

---

(١) مسجد دمشق للدكتور صلاح الدين المنجد. وقد اتخذ هذا المقياس (الخطوة) أخذاً من القدامى.

رواق يمتد من الشمال إلى الجنوب، وفي وسط هذا الرواق قبة شاهقة قامت على أربعة أركان، هي القبة المعروفة بقبة النسر، وفي صدر هذا الرواق مما يلي القبلة، أي في جنوب هذا الرواق القاطع لثلاثة الأروقة، مقصورة للخطابة ومحراب المسجد، وهناك رأس يحيى بن زكريا (كما يزعمون) بين العمودين وقبة النسر قد عمل عليه قبة أحيطت بقضبان من الحديد وحليت بالصفر وبعض المعادن.

وفي وسط الصحن قبة بأربعة أعمدة رخام أبيض وفي وسط القبة جرن رخام فيه أنبوبة من نحاس يجري فيها الماء قدر ذراع. وفي غربي الصحن أيضاً قبة قامت على أربعة أعمدة يقال إنها باقية من عهد الرومان حتى الآن، قال المنجد في (مسجد دمشق):

«وكانت أرض المسجد مفروشة كلها بالمرمر. والأعمدة كانت من الملون والمنقوش والمذهب وقد طليت قواعدها ورؤوسها بالذهب. والجدران مؤزرة إلى أنصافها بالرخام الأبيض والأحمر المنقط والأخضر المرقوش والأسود الغرابي، وما فوق ذلك مفصص بالفسيفساء. وقد حلِّيت جدران المسجد كلها بفصوص الذهب وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة مثلت أشجاراً مختلفة من بينها الحور والسرو وغير ذلك»(١).

«وقد صورت في المسجد سائر البلدان المشهورة بحيث إن الإنسان إذا أراد أن يتفرج في إقليم أو بلد وجده في الجامع مصوراً كهيئته، فلا يسافر إليه ولا يتعب في طلبه. وكانت الكعبة فوق

---

(١) مسجد دمشق لصلاح الدين المنجد.

المحراب، وكان فوقه أيضاً كرمة من ذهب أحمر يقولون إنه قد أنفق عليها سبعون ألف دينار. وكانت ستور الحرير مرخاة على الأبواب والنوافذ والجوهر يتلألأ فوقها وآلاف من القناديل تشتعل بالمسك فتفوح رائحتها ويعبق شذاها»[١].

ويقال إن تكاليفه قد بلغت ١١ مليوناً من الجنيهات وحملت وثائق الصرف ثمانية عشر بعيراً لم ينظر إليها الوليد عندما قدمت إليه وأمر بحرقها[٢].

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن من عجائب هذا المسجد أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه ما لم يره في سائر الأيام من حسن الصناعة واختلافها.

هكذا كان المسجد الأموي، وهكذا كانت الآثار العربية، ولكنه قد أخنى عليها وعليه الذي أخنى على لبد، فقد أذهب من هذا المسجد جماله وجلاله وإبداعه وتنسيقه خمس حرائق تعاقبت عليه كانت أولاها في زمن الفاطميين وأخراها في زمن السلطان عبد الحميد حتى لقد مرت عليه أيام يصلى فيه أطلالاً وأتربة متراكماً بعضها فوق بعض.

وقد أعيد بناؤه أيام السلطان عبد الحميد؛ وقد أعيد على تخطيطه الأول حذو القذة بالقذة من ناحية التصميم؛ أما آيات الفن والإبداع وما تحدثنا عنه آنفاً من العظمة والقدرة الفائقة، فليست موجودة الآن، بل يوجد كثير من القناطر وبعض اللوائح محتفظة بنقوشها وفسيفسائها،

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأهرام ـ ملحق العدد ٢٤٧٤١.

وليس في المسجد الآن ما يلفت النظر إلا هذه المظاهر الباقية أو تصميمه العجيب المتخذ على التصميم الأول، فهل ترى يستطيع القرن الرابع عشر، بما وصل إليه من حضارة وعلم وفن معماري بديع، أن يعيد للمسجد رونقه في القرن الأول؟.. العلم عند الله..

دار الكتب الظاهرية

لا يماري أحد في أن وجود المكتبات في الأمم وتطورها وانتشارها؛ وكثرة القارئين والمراجعين والمؤلفين فيها، يعطي أصدق دليل على مدى ما تتمتع به الأمة من نور وإشراق في مجال العلم والثقافة وأنه كلما كثرت المكتبات وانتشرت شال ميزان الجهل وطويت صفحته، وثقل ميزان العلم وامتد ظله، فهذه حقيقة ما يعوزها دليل، ولا ينقصها منطق.

ودمشق كبلاد أمة فتية تتحفز للوثوب وتتطلع للمستقبل، تلمس هذا وتؤمن به، فإذا وجدت فيها المكتبة الظاهرية كأثر فلا بدع أن توجد بها دار كتب كبرى تتكافأ مع الثقافة السورية وتواكب نهضتها. فلقد سمعت بأن الحكومة السورية تفكر في إيجاد دار كتب كبرى تليق بدمشق العاصمة الأموية. . ونرجو أن يتحقق ذلك فيبنى لها بناء حديث في بقعة متوسطة في دمشق لتعم فائدتها ويرتوي من مناهلها رواد العلم والأدب.

والمكتبة الظاهرية أثر خالد من آثار دمشق العظمى، ولها من الشهرة وبعد الصيت ما يدل على عظمتها. وقد زرتها كغيرها من آثار دمشق؛ بل إنني كنت أسمع بها وأقرأ عنها وأحمل عنها فكرة طيبة فقد قابلت محافظها الكريم عمر كحالة وقيمها المسؤول الأمير عبد المجيد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الجزائري الكبير، فوجدت منهما كل لطف وبشاشة، وأدركت منهما العمل الدائب والفتوة وإن كان الشيب قد وخطهما، فهما كما قال أبو الطيب:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه   وإن كان ما في الوجه منه حراب

فلقد كانا لي خير عون فيما أحببت ان أعرفه عن هذه المكتبة.

كان موضع هذه المكتبة مدرسة بناها السلطان الملك الظاهر بيبرس وابنه الملك السعيد بركة سنة ٦٦٠هـ بناء خالداً بالحجارة المرصوصة. ولا يزال إلى يومنا هذا يهزأ بالدهر. وصاحب الفكرة الأولى في جعلها مكتبة هو مدحت باشا، والذي حقق الفكرة والي الشام حمدي باشا، وصاحب الفضل في إنشائها طاهر الجزائري بمعاونة لجنة مؤلفة من علماء دمشق وتم إنشاؤها عام ١٢٩٨هـ وقد جمعت لها الكتب من بقايا عشر مكتبات كانت موجودة في دمشق منها المكتبة العمرية مكتبة عبد الله باشا. وأغلب هذه الكتب كانت مخطوطة؛ ثم أضيف إليها بعض مطبوعات ليست ذات بال، وظلت تحت إشراف الأوقاف منذ تأسيسها حتى سنة ١٩١٩م ثم أسس المجمع العلمي وضمت إليه وأصبحت دائرة واحدة. وبدأ المجمع يغذيها فازدادت زيادة ملموسة؛ ولا يزال يشتري ما يقع في يده من المخطوطات والمطبوعات حتى بلغت في آخر عام ١٩٥٢م من المخطوطات ٧٩٥٦ مجلداً ومن المطبوعات من الكتب العربية والأجنبية ٣٥٤٣٠ ومن المجلدات للمجلات والأجزاء العربية والأجنبية ٢١٧٩٥ فيكون مجموع ما فيها من المجلدات ٦٥١٨١.

وفي المكتبة ثلاثة فهارس من نوع البطاقات (فيش): فهرس للمؤلفين وفهرس لأسماء الكتب ويذكر فيه اسم المؤلف. وفهرس للموضوعات وكلها مرتبة على حروف المعجم. وطريقة فهرس المؤلف أن توضع مؤلفات كل شخص تحت اسمه. وهذه الفهارس في مجلدات متحركة، بحيث تستطيع أن تأخذ هذه البطاقة وتضع الأخرى مكانها

وهكذا، أما المخطوطات فلها فهرسان: الأول لأسماء المؤلفين، والثاني للموضوعات، وهي أيضاً في بطاقات.

وفهرس المخطوطات قديماً فهرس عام حين أنشئت المكتبة. ثم أنشىء قسم التاريخ وضعه الدكتور يوسف العش، ثم هو الآن يعمل فهرس قسم الآداب المنثورة والمنظومة.

والمكتبة الآن غنية بالمخطوطات، خاصة كتب الحديث والفقه. وأقدم مخطوط في المكتبة خط على الورق مسائل الإمام أحمد كتبت عام ٢٦٦هـ أي منذ ١١٠٧هـ وأشهر، ويوجد كثير من الكتب كتبت في القرن الرابع والخامس والسادس.

ويوجد فيها كتب بخطوط علماء أعلام أمثال ابن تيمية وابن حجر والذهبي وابن عبد الهادي وابن عساكر وابن الجوزي. . الخ ففيها كتاب حديث أبي الفتوح الهروي خط ابن عساكر بيده سنة ٤٩٩هـ وكتاب المحرر في أسماء رجال ابن ماجه خط الذهبي بيده عام ٦٧٣هـ وكتاب (الأغراب في أحكام الكلاب) خط ابن عبد الهادي سنة ٨٩٧هـ ومسبودة الإمام ابن تيمية بخط يده لمجموعة تعليقات له عام ٧٠٠هـ وبها جزء من سنن النسائي نسخ سنة ٣٥٥هـ وبها رسم يدوي للكعبة الشريفة عام ١٢٠٤هـ.

ويوجد بها قاعتان للمطالعة: قاعة عامة بلغ عدد المطالعين بها عام ١٩٥٤م ٢٦١٠٩ وقاعة للتأليف بلغ عدد المطالعين بها ١٣٨٣٦ فيكون مجموع المطالعين في العام المنصرم ٣٩٩٤٥ وبلغت الاستعارات الخارجية ٦٧٩، أما المطالعون الذين يأتون بكتبهم ليطالعوا في قاعة التأليف من المكتبة فعددهم ٨٧٧٧. ومن رواد هذه المكتبة الذين أجدهم

كلما دخلتها العالم المحدث الشهير الشيخ ناصر الألباني. وشاب مصري دؤوب جاء إلى هذه المكتبة خصيصاً في سبيل تأليف رسالة عن ابن تيمية.

ويرقد في قلب المكتبة الملك الظاهر بيبرس وقد توفي عام ٦٧٦هـ وإلى جانبه ولده السعيد.

أما عمارة المكتبة فهي كما قلت عمارة قديمة أثرية لا تتلاءم وحالة مكتبة عالمية يدخلها ألوف الرواد من مختلف الأجناس والعناصر، وتقوم في قلب دمشق البلاد التي أخذت تدب فيها روح الحياة من جميع جهاتها.

المجمع العلمي

ما بلغت أمة من الأمم ما بلغ المسلمون والعرب من جمعهم لأشتات العلوم والفنون، وتسابقهم في ميادين التأليف والترجمة والبحث، وامتيازهم بالإبداع والاختراع، وبلوغهم شأواً لا يجارى في ميادين المدنية والحضارة. ولقد ذهبت هذه المعاني كلها أو كادت ما عدا ثروة من الكتب بقيت مبعثرة في مكتبات العالم وصلت إليها بطرق لا ندري ما كنهها، ولكنا نحمد الله على هذا المكروه الذي لا يحمد أحد عليه سواه، فلقد بقي بعض مكتباتنا في أيدي الأمم الأخرى، وفي استطاعتنا أن نبذل الغالي والنفيس حتى نصل منها إلى شيء عن طريق النسخ أو التصوير أو الشراء.

وما المجمع العلمي إلا أداة فعالة أنشأته الأمة السورية لهذا الغرض أولاً، ولتحقيق هذا التراث وإخراج كنوزه ومخبآته والتعليق عليها ثانياً. وأخيراً إبرازه إلى حيز الوجود في أبهى حلة وأجمل منظر، وبثه في أقطار الأمم العربية والإسلامية.

فالمجمع العلمي إذن فورة من فورات سوريا الطامحة، وشوط لإعادة مجد العرب وسؤددهم، فهو مؤسسة لها قيمتها ومكانتها. فيتحتم عليَّ أن أخصه بِزَوْرة أقف فيها على بعض الحقائق عن هذا المجمع، وأعطي القراء الكرام صورة صادقة عنه.

فكان ذلك، فوجدته هو الآخر يحل في دار قديمة على نمط الظاهرية ودار العظم ونحوهما، وكأن الحكومة السورية ـ والله أعلم ـ

أرادت أن تجعل كل قديم ومن يشتغل بالقديم يحل في قديم! وهذه فلسفة لا يفقهها إلا سوريا وحدها.

كانت زيارتي الأولى للمجمع استطلاعية تمهيدية حظيت فيها بمقابلة رئيس المجمع الأستاذ خليل مردم، وأدركت أن زهو الشعراء الطاووسي لا يزال يتمركز في لمته البيضاء، فهو شاعر مجيد ولم يفل حده اشتعال الرأس شيباً. وحظيت عنده بمقابلة الدكتور سامي الدهان الأديب المشهور، فكان شعلة ذكاء وحذق، وجه إليَّ بضعة أسئلة عن بطاح الحجاز وربى نجد، أسئلة الدارس المتشوق إلى تلك الوهاد والنجاد.

أما الزَّوْرَةُ الثانية فكان نصيبي فيها نصيب «حنين» حيث أُخبرت أن معالي الرئيس يتأهب للخروج، وقد كادت الثالثة أن تلحق بالثانية لولا أن حظي أسعدني بمقابلة الأستاذ يس الخانجي رئيس ديوان المجمع، فقد أغراني بلطفه ومحاسن أخلاقه وعدم زهوه بالشباب!! أن ألقي إليه ما في جعبتي وأنثل أمامه كنانتي، فاستأذنته في إلقاء بعض الأسئلة فتفضل بالإجابة مشكوراً.

وفيما يلي نص الأسئلة والأجوبة.

- في أي شيء تتلخص رسالة المجمع؟

- غاية المجمع العمل على إحياء تراث العرب في العلوم والآداب والبحث في علوم اللغة العربية؛ كي تتسع للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة، والبحث في تاريخ العرب وآثارهم.

- كم هم أعضاء المجمع؟

- أعضاء المجمع العاملون في دمشق عشرون، أما الأعضاء المراسلون في بقية البلدان العربية، فليس لهم عدد معين، ويبلغون الآن الستين.

- هل للأعضاء مكافآت؟

- الأعضاء العاملون في دمشق لهم مكافآت بالطبع؛ أما المراسلون فليس لهم مكافآت إلا أن يكلفهم المجمع بعمل ما فيكون لهم مكافآت.

- كم ميزانية المجمع؟

- تتراوح بين ١٥٠ و١٧٥ ألف ليرة سورية بما فيها دار الكتب الظاهرية.

- كيف ينتخب رئيس المجمع؟

- ينتخب من بين الأعضاء العاملين بطريقة الاقتراع السري، وقد شكا لي حضرة الأستاذ عدم تجاوب بعض الجهات التي يعنيها مثل هذا الأمر مع المجمع في البلدان العربية، والمفروض أن يكونوا خير عون للمجمع في أداء رسالته.. ويضرب مثلاً لذلك بأن المجمع إذا أراد، من جهة ما من الأقطار العربية نسخ مخطوطة أو تصويرها بالأجرة يتطاول الأمد على تحقيق ذلك، وأحياناً لا يتم من ذلك شيء! بينما إذا كتب المجمع للندن أو موسكو أو باريس في هذا الشأن سرعان ما يأتي الطلب على أتم وجه وأحسنه!

قلت: لا غرابة أيها الأستاذ فتلك شنشنة نعرفها من أخزم. وفيما يلي نسجل بعض المعلومات العامة عن نشاط المجمع ولجانه، وما حققه من أعمال منذ أنشىء، اقتطفناها من جريدة «العلم» الدمشقية، وقد أُتيح

لمندوبها، أن يجري مع رئيس المجمع، بعض المحادثات في هذا الشأن:

تبتدىء السنة المجمعية عادة في شهر تشرين أول من كل عام، وعلى هذا فإن السنة الحالية للمجمع تبتدىء من تشرين أول عام ١٩٥٤م حتى تشرين أول عام ١٩٥٥م، وينقسم نشاط المجمع إلى أقسام أربعة هي:

١ ـ جلسات أعضاء المجمع.

٢ ـ المحاضرات.

٣ ـ نشر المخطوطات.

٤ ـ إصدار مجلة المجمع الدورية.

فجلسات أعضاء المجمع يدور فيها البحث حول شتى الموضوعات اللغوية والثقافية بأقسامها الثلاثة الأدب والتاريخ واللغة.

وأما المحاضرات فإن المجمع كان يعنى بها كثيراً في بدء تأسيسه وقبل أن يتيسر له تحقيق المخطوطات وطبعها ونشرها، ولقد طبع منها حتى الآن ثلاث مجلدات.

وأما نشر المخطوطات، فقد نشر منها المجمع حتى سنة ١٩٤٥م عدداً متواضعاً منها: الجزء الأول من محاضرات المجمع، والجزء الثاني من نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي، والجزء الثامن منه، وكلاهما بتحقيق المستشرق «مارجليوث»، ثم التبصرة بالتجارة للجاحظ، والمنتقى من أخبار الأصمعي؛ وتكملة إصلاح ما تغلط به العامة للجواليقي؛ وكلها بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي.

ومنذ عام ١٩٤٥م انصرف المجمع إلى نشر المهم من المخطوطات العربية، فحقق ونشر ما يلي: رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري بتحقيق الأستاذ سليم جندي، وتاريخ حكماء الإسلام والمستجاد من فعلات الأجواد، والبيزرة؛ والأشربة لابن قتيبة، وكل هذه الكتب بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي السابق، وديوان ابن عنين، وديوان علي بن الجهم، وديوان ابن حيوس وهذه الثلاثة بتحقيق الأستاذ خليل مردم (رئيس المجمع الحالي)، والدارس في تاريخ المدارس، والرسالة الجامعة للجريطي، وفهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ قسم التاريخ ـ وضعه الدكتور يوسف العش، وديوان الوأواء الدمشقي، وتاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر ـ المجلد الأول ـ والثاني ـ حققهما الدكتور صلاح الدين المنجد، وفضائل الشام ودمشق، وطرفة الأصحاب في معرفة الأنساب وقد حققه المستشرق السويدي «سترسين»، وتاريخ داريا بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني، والموفي في النحو الكوفي شرحه وعلق حواشيه الأستاذ بهجة البيطار، وغوطة دمشق، وكتاب كنوز الأجداد وكلاهما بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي، وعثرات اللسان من وضع الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي.

أما مجلة المجمع فقد صدر منها حتى الآن ثلاثون مجلداً (ويقول الرئيس): إنها من المراجع المعتمدة والموثوق بها إن في اللغة أو التاريخ أو الأدب وكل ما يتعلق بالثقافة العربية، وهذه المجلة يحررها نحو من ثلاثين عالماً مختصاً من أعضاء المجمع العلمي في سائر البلدان التي للمجمع فيها مراسلون.

❖ ما سيحققه المجمع:

أما الأعمال التي يعتزم المجمع تحقيقها هذا العام والذي يليه، فمن المنتظر أن يصدر المجمع في هذا العام عدة كتب، بعضها أوشك طبعه على الانتهاء، وبعضها لا يزال قيد الطبع، أو قيد التحقيق والإعداد.

❖ خريدة القصر:

ومن أولى هذه الكتب «خريدة القصر وجريدة العصر» تأليف العماد الأصبهاني الكاتب، وهو يقع في مجلد ضخم وسيصدر قريباً جداً، ويضم عدة مجلدات سينشر المجمع العلمي منها القسم المتعلق بالشام واليمن، على اعتبار أنها كانت تابعة للشام بمعناها الواسع، وهذا القسم يدخل في ثلاث مجلدات ضخمة، وسيصدر منها في غضون الأيام القادمة المجلد الأول، ويقع في أكثر من خمسمائة صفحة، وقد حققه الدكتور شكري فيصل. وهذا المجلد يعنى بأدباء الشام بصورة خاصة ـ والمقصود بالشام هنا معناها الواسع، أي بحدودها القديمة من الفرات إلى رفح ـ كما يتناول أدباء الساحل وأدباء مدينة دمشق وغيرهما من المدن التابعة للشام. وهذا القسم أيضاً من أوسع أقسام الكتاب. أما بقية أقسامه الأخرى فإن مصر عنيت بطبع القسم الخاص المتعلق بها، كما أن العراق عازم على طبع القسم المتعلق به أيضاً.

(قلت: والجزيرة العربية ما بالها لا تعنى بقسمها الذي يختص بها؟..).

❖ ديوان ابن أبي الخياط:

كما أن المجمع عازم أيضاً على نشر ديوان علي بن أبي الخياط، وهو شاعر فحل ولد بدمشق عام ٦٥٠هـ وتوفي فيها. وانكب على تحقيقه

الأستاذ خليل مردم، وقد تمكن المجمع من حيازة جميع نسخه المخطوطة المعروضة في مكاتب العالم، وعددها سبع نسخ، جلب بعضها من اسكوريال بإسبانيا وبعضها من الدانمرك وبعضها من القاهرة والمدينة المنورة.

❖ ديوان ابن أبي حصينة ـ شرح المعري:

ومن بين الكتب المعتزم نشرها ديوان ابن أبي حصينة المعري وشرحه لأبي العلاء المعري(١)، وقد انتهى الدكتور أسعد طلس من تحقيقه، وسيدفع عما قريب للطبع، وسيصدر بجزأين، وقد جلبت نسخه من إسبانيا وبغداد.

❖ فهرس المخطوطات والمجلة:

كما سيصدر المجمع فهرس المخطوطات للمكتبة الظاهرية ـ قسم الأدب واللغة ـ ويقوم بإعداده حالياً الدكتور يوسف العش. وفي نية المجمع كذلك إصدار فهرست لمجلته يقع في ثلاث مجلدات من المجلة التي صدر منها حتى الآن ثلاثون مجلداً، ويقوم على إعداد الجزء الأول منه الأستاذ عمر رضا كحالة مدير المكتبة الظاهرية بالوكالة، كما يقوم بإعداد الجزء الثاني منه الأستاذ نعيم الحمصي. أما الثالث فيقوم بإعداده الدكتور شكري فيصل.

❖ أمراء دمشق:

وثمة كتاب بعنوان أمراء دمشق وحكامها لصلاح الصفدي، ويشتمل

---

(١) كان لصاحب «اليمامة» فضل إرشاد «المجمع» إلى نسخة هذا الشرح بمقال نشره عن شعر ابن أبي حصينة في «مجلة المجمع العلمي».

على سرد أخبارهم من الفتح الإسلامي حتى عصر المؤلف في القرن الثامن، وقد حققه الأستاذ صلاح الدين المنجد؛ وهو ما يزال قيد الطبع.

❖ محمد كرد علي ـ حياته وآثاره:

كما أن هناك كتاباً بعنوان (محمد كرد علي ـ حياته وآثاره) ألفه الدكتور سامي الدهان. وهناك كتاب عن المجمع العربي للأستاذ أحمد الفتيح، ذكر فيه أعمال المجمع وتطوراته، وسيدفع للطبع قريباً.

❖ اتصالات المجمع:

وللمجمع نشاط في مجال اتصالاته بالمجامع العربية والعالمية فهو على صلة وثيقة بها.

ونشاط المجمع مقصور على نواحي اللغة والأدب والتاريخ، بينما المجمع المصري مقصور نشاطه على اللغة فقط.

أما المجمع العراقي فهو كالمجمع السوري. وكثير من أعضاء هذه المجامع مشترك في المجمع السوري. وهناك صلة وثيقة بين المجمع السوري ومجمع الاتحاد السوفياتي لها أعظم أثر نتج عنه دعوة وفده إلى زيارة روسيا. وهناك أيضاً صلات وطيدة بين المجمع والمؤسسات الأوروبية التي تعنى بالاستشراق، كمدرسة اللغات الشرقية في لندن، حيث يجري معها تبادل المطبوعات والمعلومات. وللمجمع أعضاء مراسلون في عدد من الجامعات الكبيرة في العالم كجامعة أكسفورد وكمبردج ولندن وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ حمد الجاسر رئيس تحرير صحيفة اليمامة والباحث العربي الشهير عضو في هذا المجمع وله فيه نشاط ملموس.

متحف التقاليد الشعبية
قصر العظم

بين أحياء دمشق القديمة وحول المسجد الأموي يجثم هناك أثر خالد وتحفة بديعة من تحف دمشق.. هذا الأثر هو قصر أسعد باشا العظم والي دمشق في زمن الأتراك بناه عام ١١٦٣هـ وأفرغ فيه جهده وأبدع فيه أيما إبداع، فكانت عمارته الحجرية المتينة، وتصميمه العجيب، وتزويقه النادر، مثالاً عالياً من فن العمارة، وآية في الجمال والروعة.. تلج من بابه إلى ممر عادي يفضي بك إلى ساحة القصر الرحبة المفروشة بالحجارة الناعمة الملساء، يتوسطها بركة حولها بعض الأشجار الباسقة، وتقوم على جنباتها الأواوين والغرف المزخرفة بالنقوش والكتابات والصور والفسيفساء.. قرأت في أحدها همزية البوصيري بخط نسخ جميل، ويليها قصيدة في مدح صاحب الدار وتعظيمه، وفي آخرها تاريخ بناء القصر، ومطلع هذه القصيدة:

بيت التهاني باسم مستنير   بني بتوفيق المعين الكبير

وخاتمتها:

يا جملة الناس قفوا وانظروا   محاسناً جلت بناها الأمير
بيت أتى تاريخه للمنى   شيده أسعد باشا الوزير
١١٦٣هـ

وفي إيوان آخر مدائح للنبي (ﷺ) منها:

سقى الله عهداً بالعقيق ومعهدا   وبان الحمى من طيبة صيب الندا
مخيم رضوان ومثوى نبوة   ومهبط وحي المصطفى علم الهدى

محمد المبعوث للخلق رحمة   من الكفر، بالنصر الإلهي مؤيدا
وخير نبي حف والكون مترع   وأشرف من أحيا الليالي تعبدا

وقد شاءت الحكومة السورية أن تتخذ من هذه التحفة متحفاً ومن هذا الأثر الخالد مكاناً للتقاليد الشعبية والألبسة الشرقية، والصناعات الوطنية، فوضعت فيه صورة صادقة تمثل طبقات الشعب السوري على ما هو عليه من عادات وتقاليد وما اتخذه ويتخذه من أزياء وما صنعته يده من الآنية أو نسجته من اللباس، فجاء تعبيراً صامتاً يستطيع الباحث أن يأخذ منه فكرة، ويخرج منه بعبرة.

كان أول ما واجهنا من هذا المتحف إيوان مثلث الشكل داخله غرفتان، وفي جانب من هذا الإيوان تمثل جلوة العروس في سوريا في هذا الزمان، وهي عبارة عن أربعة تماثيل من النساء صنعت من الورق المقوى وطعمت بالجبس وطليت باللون الوردي المناسب للون نساء هذه البلاد، وجعل لكل واحدة منهن لمة من الشعر تنسدل على منكبيها فقط، وألبسن زيَّ العصر وحليته وصرن على شكل نصف دائرة، تقف وسطهن غادة بارعة الجمال، لابسة زينة الغرس، والتي عن يسارها جاثية على ركبتيها وكأنها تراقب ثوب العرس وتعنى بحسن لبسته. أما التي عن يمينها فواقفة مطلة في وجهها وكأنها تعنى بتصفيف شعرها، وملاحة وجهها، فهي تنظر إليها نظرة المعجب المزهو، أما ثالثة الوصائف فتتربع عن يمين العروس وبيدها مزهر منحنية عليه تجس وتره وتعيره أذنها وكأنها راضية عن النغم الذي توقعه. وهذا الجانب من الإيوان يمثل في فرشه ومقاعده وحليته وآنيته وطنافسه أزياء هذا العصر.

أما الجانب الثاني فيجلس فيه تمثال أسعد باشا العظم ـ باني هذا

القصر ـ وحوله تماثيل ثلاثة رجال: أحدهم بيده كتاب قد أرخاه بين فخذيه، وذهب يفكر وآخر ينظر إلى الباشا نظرة الخجل المأخوذ. أما الباشا فبيده وثيقة كبيرة قد استاء لما جاء فيها وذهب ينظر إلى وكيله نظرة الغضب والحرد وهو يرتدي جبة مزركشة وطربوشاً وعمامة، ويقارب من لباسه لباس هذا الذي يقعد عن يمينه ووكيله. أما الرابع فتمثال خادم وقف وبيده صحن به فناجين قهوة وكأنه يسقي الباشا ومن حوله كؤوس القهوة.

وفي الجانب الثالث فرش ومقاعد وآنية وصناديق تمثل عهد الباشا في منتصف القرن الثاني عشر الهجري.

وتمثل إحدى الغرف بيتاً في حوران به تماثيل ثلاثة أشخاص: رجل متربع يلبس الغترة والعقال وثوباً منقوش الأكمام وهو منحن يشحذ خنجراً بيده على مسن من الحجارة الخضراء، وامرأة جالسة وبيدها ثوب بدوي مزركش وأمامها آلة تطريز خشبية بدائية وهي منهمكة في تطريز هذا الثوب، وتقف أمامها امرأة على رأسها طبق. أما الحجرة فمفروشة بنسيج أيدي هؤلاء، ومكسوة جدرانها به؛ ومعلق في جانب منها سيف ناحل من سيوف البدو وبندقية من نوع (الفتيل).

وتمثل الغرفة الثانية عائلة في جبل الدروز نزل بهم ضيوف والكل عبارة عن ثلاثة رجال وامرأة وطفل، فصاحب البيت مكبّ على مقلاة القهوة «المحماس» يحركها على الجمر وهو يرتدي ثوباً من ذات الأكمام الواسعة وغترة حمراء (شماغ) وعقالاً، ويأبى شعر رأسه المتكاثف إلا أن يمتد على صفحتي وجهه منتشراً مشوشاً. أما المرأة فقد أقبلت من جهة شلال ينحدر من الجبل وقد تكتل النساء حوله يرتوين منه؛ وعلى عاتقها جرة أمسكتها بيدها ذات المعصم العاري الجميل. أما طفلها فيجلس

على مقربة من الشلال وعليه لباسه البدوي المسبل وكأنه ينظر إلى أمه نظرة الحنان والإشفاق، ويجلس الضيفان حول متكأ واحد وكل منهما يرتدي جبة وطربوشاً.

ونخرج من هذا الإيوان إلى حمام القصر فنجد بعد المدخل ردهة يجلس بها تمثال شخص مرتدياً بعد الحمام، وهو شاخص بصره كأنما هو يحس بالراحة والارتخاء بعد حركة الحمام وتوتر الأعصاب به، ونمضي إلى المستحم فنرى تمثالي شخصين أحدهما قائم بتنظيف الآخر.

ثم نأتي إلى إيوان المحمل الشامي فنجده منصوباً يحمل زينته وكساءه المعثكل وستوره المتدلية المطعمة بالقصب الجميل ويطوف به ستر من الحرير الأحمر فوقه سياج من كساء الكعبة وحوله صناديق فوق كل واحد منها مصحف وأمامه تمثال عسكري في يده سيف، ويقوم (السنجق) في مكان آخر من الحجرة وهو عبارة عن قاعدة كالسرج فوقها منتصب مطرز بالصفر في طول المترين وعرض الذراع مكتوب عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾.

ويقف خلفه ثلاثة تماثيل لرجلين وامرأة مرتدين لباس الإحرام وفي وسط الحجرة عبارة عن مربع من الخشب فوقه وثيقة من جلد غزال مكتوب فيها النسب الشريف، ورقع أخرى مكتوب عليها مدائح في النبي ﷺ، وبيضة كبيضة الدجاجة مكتوب عليها بالخط الدقيق سورة يس منذ ٤٠٠ سنة، ورقاع شفافة في حجم الريال العربي أو أكبر بقليل مرصوص بعضها فوق بعض لا تتجاوز ارتفاع العشرين ريال فوق بعضها

البعض مكتوب عليها القرآن الكريم بخط دقيق لا يتبين إلا بالمجهر الذي وضع حولها لتقرأ به هذه الرقاع؛ وقد غطي هذا المربع بلوح من الزجاج.

أما الحجرة فكانت مزينة بالفسيفساء والنقوش الجميلة والكتابات العربية والكوفية واللوحات النادرة.

وهكذا بقية حجر المتحف تغص بالآثار والصناعات المختلفة، والنقوش النادرة والأواني الصدفية والزجاجية والنحاسية؛ وبه لوحة مرسوم عليها دمشق قبل ثلاثمائة سنة. وصندوق من حديد صنع منذ أربعمائة سنة بضغطة واحدة على مفتاحه يغلق اثني عشر لساناً في جهات الصندوق الأربع، وبأخرى يفتحها.

وكان أحد القائمين على شؤون هذا المتحف يردد هذا العبارة «أقام العباد فيما أراد وله المراد فيما يريد وهو العزيز الوحيد.. إن صاحب هذا القصر لم يغن عنه قصره ولا ماله وسلطانه فقد شنق عند باب هذا القصر..» يقول هذا وهو ينفث سجارته في نهار رمضان، فقلت:

يا أيها القاضي إلى كم ترى   تسن الحديد ولا تقطع

المتحف الوطني

هذا المتحف يحتوي على آثار سوريا منذ عهد الآراميين والفينيقيين والحثيين والكنعانيين والآشوريين والبابليين والإغريق إلى العهد التركي وبدهي أن أقدم مدينة في العالم اشتهرت بتاريخ مجيد، ومرت عليها أمم ودول وحضارات ومدنيات وعلوم وثقافات.. لا شك أن آثارها ستكون عظيمة وعبرها ستكون كبيرة، وأن ما وجد حتى الآن في متحفها - وما أكثره - جزء من مئات الأجزاء التي لا تزال تحت التراب. فهذا المتحف لا يزال يتلقى في كل أونة جديداً من المتحف الكبير (سوريا) وهذه مصلحة الآثار السورية دائبة في استخراج كنوز أرضها الأثرية، وهذه البعثات الأجنبية تفد إلى سوريا من مختلف بقاع العالم للتنقيب عن الآثار، وتزويد النوع البشري بكل أثر عفا عليه الدهر وأسدل عليه ستار العدم..

فهنالك بين ربوة الجامعة السورية ونهر بردى وجامع السلطان سليم يقع المتحف الوطني، ولست بحاجة إلى من يدلك إليه، فهذه حديقته الواسعة السامقة، الصفصاف والسرو والحور تنادي على نفسها وتستلفت أنظار المارة بتماثيلها القائمة وتوابيتها المنتشرة، تدخلها فترى هنا تمثالاً واقفاً كأنما يروي لك عهود الغابرين من آلاف السنين. وهكذا أسد من الحجارة الصلبة قد أقعى واستبطن ذنبه وغلب براثنه في رأس بقرة وظل كاشر الأنياب، فاغراً فاه الموحش، كأنما أقبل عليه أحد لذاته لينازعه فريسته. وهنالك تابوت من الحجارة السميكة نحت ليكون قبراً لعظيم لاحظته عيون السعادة في حياته ليحفظه من عوادي الدهر، وأسباب الفناء بعد موته، فذهب القابر والمقبور إلى الذي منه خلقوا، وبقي القبر كأنما

يروي لنا قصة هذا الإنسان المغرور رواية الساخر المستهتر بمكلف الأيام ضد طباعها. وليست هذه بذات بال في نظر رجال المتحف فقد استثقلوها وأمنوا عليها عوامل التعرية وأسباب الفناء وتركوها في حديقة المتحف.

أما المتحف فمقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم لآثار الأراميين والفينيقيين والحثيين. وقسم لآثار الرومان واليونان، والقسم الإسلامي.

ففي القسم الأول والثاني مجموعات من الأدوات البرونزية وصلبان ومباخر وسرج وبكلات وأختام وزنات وتماثيل لآلهة ذلك العصر ـ كما يسمونها ـ وملوكهم وعظمائهم، ولوحات من الأحجار تحمل شتى الصور والكتابات، وبه نماذج من آنيتهم وسلاحهم وصناعاتهم المختلفة ونقودهم، وبعض قطع الأقمشة البالية وخف من الحديد البرنزي يستر ما فوق الكعبين ويقارب طوله الشبر والنصف. وتمثال ربة النصر وتمثال (هركل) و(منيرفا) إلهة الرومان ـ كما يقولون ـ إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة العظيمة.

أما القسم الإسلامي فأول ما يواجهك منه قصر الحير لهشام بن عبد الملك، القصر العظيم الذي بناه هذا الخليفة ما بين تدمر والقريتين ووجد طللاً خاوياً قد تداعت أركانه، فنقلت مصلحة الآثار السورية منه بعض الأقواس والنقوش ووضعتها على شكلها في بناء صورته على صفة مدخل القصر، ووضعت صورة مصغرة منه عامراً كيوم بناه الخليفة وأخرى له غامراً كيوم وجدته متداعياً متهدماً.

ويجاور هذا تخطيط مدينة (الرقة) يظهر عليها نهر الفرات والسور الذي بناه المنصور والقلاع الحصينة التي وضعها تجاه الروم. وفي هذا

القسم تمثال لفارس من الخزف المطلي بالألوان المختلفة، وهو نموذج لفارس مغولي يعالج تنيناً التفَّ حول ساق حصانه، وهو آية من آيات الفن الإسلامي.

وتمر بعد هذا بمجموعة من النقود سُكَّتْ في القرن السابع الميلادي، ثم نقود في الدولة الإسلامية قبل تعريب العملة، ثم النقود العربية تمثل النقود الذهبية والفضية في عهد كل خليفة من خلفاء بني أمية وبني العباس. وهناك الحلية الإسلامية الذهبية والفضية من أساور وقروط وخواتم وقلائد وعقود. الخ، ثم الأسلحة الإسلامية من دروع وسيوف وبيض ودرق ونبل ونشاب منذ القرن الإسلامي الأول، ويوجد قاعات تغص بالأخشاب المزخرفة المنقوشة، وأخرى بأواني الفخار من بينها قنابل فخار تملأ باروداً ويقذف بها في وجه العدو ثم قاعات الزجاج والنحاس من بينها أواني القهوة وثريات وشمعدانات وقماقم للعطور وصحون خزفية مطلية بالألوان الزاهية ومحتفظة بلونها كأنما طليت بالأمس، ومن بينها أدوات للكيميا والتحليل وغير ذلك محتفظ بلونه وطابعه.

ويوجد قاعة خاصة بالمصاحف والكتب العربية النادرة والوثائق، من بينها كتاب طب عربي مصورة فيه الآلات الجراحية، ومصاحف مزخرفة بماء الذهب في العهد العباسي، وأدوات فلكية عجيبة وساعات رملية وزوايا هندسية، وكتاب فلك به أسماء النجوم وكيف تدور في فلك السماء برسم عجيب نادر، وساعات فلكية مغناطيسية لأخذ الاتجاه، وسماء كالكرة محمولة على عمود وعليها أسماء جميع النجوم. وهنا نسخة من شاهنامة الفردوسي مكتوبة حوالي سنة الألف هجرية، وتفسير

البيضاوي مخطوط مذهب ونفيس كتب سنة ١١٨١هـ، ومصاحف من زمن المماليك محلاة بالذهب وبأشكال نباتية، منها مصحف بخط الثلث مجدول الأطراف بالذهب وموشًّى بألوان مختلفة، كتب في أواخر القرن الثامن الهجري. وهنا حجج وآيات قرآنية مكتوبة على رق غزال بخط كوفي وعربي في القرن الثامن.

هذا هو المتحف الوطني الذي وضعت نواته عام ١٩١٨م، وقد كان في دار المجمع العلمي الآن ثم نقل إلى مكانه الحالي عام ١٩٣٦م وقد كان للبعثات الخارجية التي تعنى بالتنقيب عن الآثار ضلع قوي في توسيع دائرة هذا المتحف وتزويده في كل حين بآثار كثيرة إلى جانب ما يقوم به رجال الآثار في سوريا من جهود وما لهم من توفيق في بناء المتحف.

ملهمة الشعراء

لم تكن الأمم، حينما تبوأت دمشق منذ العصور الأولى، مسوقة إليها بدافع الصدفة، أو عامرة أرضها لسر خفي لا يدرك كنهه، ولم تكن مطمح أنظار العالم ومحط ركاب الأمم والملوك محبة لهذه البلاد أو رغبة في سواد عيون أهلها.. ولكنها دمشق الجنة الفيحاء والروضة المتموجة الغناء. دمشق ذات الأنهار والرياحين، تتلمس الحسن في ربواتها، وتجد السحر في غيطانها وحدائقها، ويشنف مسامعك همسات حورها وصفصافها وسروها، وطنين شلالاتها وأنهارها، ويمتع بصرك حمرة أرضها في خضرة شجرها تحت بياض قصورها وسامق حصونها. ففي البكور أو العشي حينما تلقي عليها الغزالة رداءها وتجلوها لك في أحسن حلة وأبهى منظر، أدعوك إلى سفح (قاسيون) الجبل المطل عليها من الناحية الشمالية الغربية لترى دمشق الجنة الخالدة، تمتد أمامك امتداد الطرف، وترى الخضرة والنضرة والسحر والجمال.

إن شوقي حينما قال خريدته في دمشق فلأن دمشق ألهمته ذلك وأوحت إليه بالشعر الرصين والبيان البديع فتراه يقول:

آمنت بالله واستثنيت جنته ... دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبَّت خمائلها ... الأرض دار لها الفيحاء بستان
جرى وصفَّق يلقانا بها (بردى) ... كما تلقَّاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمرُّدة ... والشمس فوق لُجَيْنِ الماء عقيان
والحور في دمَّرٍ أو حول هامَتِها ... حُورٌ كواشفُ عن ساقٍ وولدان
وربوة الوادِ في جلبابٍ راقصة ... السّاقُ كاسية والنحرُ عريان

والطير يصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان
وقد صفا بردى للريح فابتردت لدى ستور حواشيهنَّ أفنان
خَلَّفْتُ لبنان جنات النعيم وما نبئتُ أنَّ طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت إلى الفيحاء وارفةً فيها الندى وبها طيٌّ وشَيْبانُ

وتراه يقول:

سلام من صبا بردى أرقُّ ودمع لا يكفكف يا دمشق

❁ ❁ ❁

فتحتَ جنانكِ الأنهار تجري وملءُ رياكِ أوراقٌ وَوُرْقُ

وتعالَ معي إلى سر حياة دمشق وشريانها الرئيسي (بردى). : هناك في سهل الزبداني ترى بحيرة ساجية صامتة؛ ينساب منها بردى النهر الخالد، ويأخذ يفيض الخير والنعيم على ضفتيه، ومنه تتفرع أنهار دمشق السبعة. وفي هذا السهل تمتد الجنان الفيح ويصدح الطير عليها غرداً نشواناً، وفي سفوح الجبال المطلة على هذا السهل تقوم مصايف دمشق. فهناك (بلودان) الغادة الحسناء ذات الشلالات الجميلة والحدائق النضرة، وذات الفندق العالمي المعد للمؤتمرات العالمية. وهناك (الزبداني) و(بقين) و(مضايا) تطل على هذه الرياض النضرة والحدائق الغناء.

وتنحدر مع بردى فتلفك في أبرادها جنات من أعناب وزيتون ورمان وحب وقضب حتى تفضي إلى (دمر) وهامتها ـ كما يقول شوقي ـ وهنا ترى الأنهار قد أخذت طرقها في منتصف الجبال وسفوحها ونشرت ما بينها وبين مجرى بردى خمائل وغابات وبساتين ورياضاً حتى تفضي إلى ربوة دمشق حيث الميادين الفسيحة وملتقى طرق الأحياء؛ وحيث

شارع بيروت الشارع الجميل البديع. وهذه إحدى غوطتي دمشق ذواتي الأفنان والزيتون والرمان، ومن كل فاكهة زوجان.

أما هذه الأنهار فتأخذ طريقها مفترعة دمشق، مارة بشوارعها وميادينها وحدائقها وقصورها حتى تصب في الغوطة الشرقية، والغوطة هي التي يقول فيها الحريري بمقاماته: «جنان الدنيا أربع منها الغوطة وهي أجملها وأبدعها وأنضرها».

ولقد تغنى الشعراء بمفاتن الغوطة، وألهمهم سحرها وجمالها.

يقول أبو المطامع بن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقتُ طعم الماء إلا استخفَّني ... إلى (بردى) و(النيربين) حنين

ويقول ابن الساعاتي:

سقى الله عهد النيربين عهاده ... وعيشاً لنا بالغوطتين تصرَّما
فلم أر ظلاً سابغاً غير ظله ... ولم أر ورداً غيرها ينقع الظما
عروس حصان كل يوم زفافها ... من الدهر عيداً للسماح وموسما

ويقول الآخر:

في روضة با(لنيربين) أريضة ... رضعت أفاويق السحائب حُفَّلا
أنَّى اتجهت رأيت ماء سانحاً ... متدفقاً أو يانعاً متهدِّلا
وكأنما أطيارها وغصونها ... نغم القيان على عرائس تجتلى
وكأنما الجوزاء ألقت زهرها ... فيها وأرسلت المجرة جدولا
ويمرُّ معتل النسيم بأرضها ... فتخال عطاراً يحرِّق مَنْدَلا

ويروى أن المأمون أقسم يوماً وقد رأى الغوطة وسرح طرفه في أشجارها ونباتاتها:

«أنها خير مغنًى على وجه الأرض»، وقال: «عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذي لم يخلق مثله؟».

❀ ❀ ❀

يقال إن بساتين الغوطة مائة ألف وواحد وعشرون ألف بستان. والغوطة هي هبة بردى، كما أن مصر هبة النيل.

❀ ❀ ❀

يقول محمد كرد علي في الغوطة التي هي مسقط رأسه، وبها شب وشاب، يقول:

«أتى لي في الغوطة ٦٧ سنة تسلمني الطفولة إلى الشباب والشباب إلى الكهولة والكهولة إلى الشيخوخة، ولاقيت ربيعها وصيفها، وخريفها وشتاءها، وما لقيت منها إلا نضرة وسروراً.. أنعشني هواؤها، وأدهشني أرضها وسماؤها.. وما فتئت؛ منذ وعيت، أقرأ في صفحة وجهها الفتان آيات الإبداع والإعجاز..».

ويقول محمد البرم أحد شعراء الشام المعاصرين:

سقى الغوطة الغناء هاطل مزنة ... ولا زال دفَّاقَ الزلال غديرُها
مرابع آرام وفردوس أنفس ... يباهي بها حسن الأصيل بكورها
إذا ما هبطنا روضة من رياضها ... تأرج ريّاها وفاح عبيرها
نذرنا لها ألا تخون عهودها ... وما كل نفس لا توفى نذورها

ولعائشة الباعونية في وصف دمشق:

نَـزِّه الـطـرف فـي دمـشـق فـفـيـهـا كـل مـا تـشـتـهـي ومـا تـخـتـار
هـي فـي الأرض جَـنَّـةٌ فـتـأمـل كيف تجري من تحتها الأنهار

ويقال: إنه يمكن أن يتألف مما قيل في الغوطة من الشعر ديوان لطيف.

وبالجملة، فهذه دمشق، لا كما رأيتها، بل حسب ما استطاع أن يصورها قلمي القاصر، عن إبراز محاسنها وإظهار مفاتنها.

القباب والأضرحة

لا يزال الداء الذي ينخر في جسم الأمة الإسلامية يتمركز في كثير من بلدان المسلمين بشكل يلفت النظر، ويسترعي الانتباه، ويعصر القلب، لم يزل السواد الأعظم من المسلمين يغدون ويروحون إلى عظام بالية تحت أطباق الثرى من آلاف السنين، ولم يزالوا يقدمون لها الهدايا وينبحون لها النذور ويضعون لها السدنة ويبنون عليها القباب ويطوفون حولها، ويتمسحون ويبكون ويبتهلون، مما يجعل ديننا سخرية بين الأمم، ويبقي هذه الثغرات البدعية مفتوحة على مصراعيها، يلج منها أعداء الإسلام والمبشرون ضده، ويستغلونها هدايا ثمينة يفرح بها أعداء الإسلام، ويصطادون بها آلاف البشر، والدين الإسلامي من هذا براء.

لقد ألفيت هذه الظاهرة في دمشق واضحة جلية، ووجدت الكثيرين من الناس تعشش هذه الفكرة في أدمغتهم وتحتل من أفئدتهم المكان الأول، وهي وإن كانت في طريقها إلى الزوال ـ إن شاء الله ـ لما يقوم به الشباب المثقف هناك، من محاربة لهذه البدعة وسخرية بها، وازدراء لها، وبما يقوم به إخواننا السلفيون من جهاد ودعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. . إلا أنه قد آن الأوان لمحوها من الوجود، ونبذ هذه العقلية البدائية مع عهودها المظلمة التي تتخذ هذه البدع والمبادىء شراكاً لإيقاع الناس في فخاخهم وأحابيل لإركاع السواد الأعظم تحت أرجلهم، إن هذا العصر ولى وانقضى ولم يبق إلا عصر اليقظة الإسلامية، والعودة بالمسلمين إلى ما كانوا عليه في عهدهم الطاهر المبارك.

إن دمشق الحرة المجاهدة الناهضة لتأبى أن تبقى هذه اللوثة تلطخ

تاريخها، وتنخر في جسم شعبها الحي اليقظ، ليخرج شبابها على هذا المبدأ السقيم، ويقذف به إلى غير رجعة، ويشنَّ على هذه البدع والخرافات، التي ما أنزل الله بها من سلطان، حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا هون.

إن دمشق لا ترضى أن ينشأ شبابها فيجدوا آباءهم وأمهاتهم يتخذون من دون الله وليجة يطلبونها للنفع ويستدفعون بها الضر فيحذون حذوهم ويقتفون آثارهم، وتظل الأمة ترسف في قيود الرجعية والخرف والتدجيل قروناً أخرى.

إن دمشق تعرف من صميم قلبها أن الشباب الذي ينشأ على هذه العقلية ويتمرغ في أوحال هذه المستنقعات القذرة والبؤر المشؤومة لا يرجى منه خير، وليس في وسعه أن يعتمد بعد الله على نفسه، ويقف كالجبل الأشم في وجه النكبات والأرزاء.

إن هذا الصوت المخنوق الذي وجدته ينادي بالقومية العربية في دمشق وغيرها من البلدان العربية لم يتجاسر أن يخرج وينادي هذا النداء مطَّرحاً الوحدة الإسلامية المبدأ الصحيح الذي هو الطريق السوي لإعادة مجد العرب وسؤددهم.. إنه لم يتجاسر على الخروج إلا بعد أن رأى المسلمين بهذه المثابة وبهذه العقلية السخيفة. فلتمت هذه الفكرة في مهدها لا حيّاها الله ولا بيّاها، ولتمت تلك الرجعية بشيخوختها الهرمة ودائها العضال ولتعد للمسلمين عزة محمدية عمرية براء من كل هذه الترهات.

لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق فوجدت فئاماً من الناس يغدون إليه ويروحون..

وجدتهم يطوفون حوله ويتوسلون به ويعلنون دعاءهم له من دون الله.

وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه وتنادي: أغثني يا محيي الدين.

وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه، ويمددن أمامه الأكف، ويمسحن الوجوه، ويخشعن، ويتضرعن.

وجدت قبة فخمة قد بنيت بناء جميلاً بديعاً وعلقت بها ثريات الكهرباء واللوحات النادرة والنقوش الجميلة والفسيفساء العظيمة، وأرضها قد فرشت بالسجاد الجميل، وقد أقيم على القبر شباك من الحديد ورفعت بناية القبر ما يزيد عن المتر والنصف، وأرخيت عليه ستور الحرير الأسود مكتوباً على جانب منها بالقصب:

إن سألتم متى توفي حميد   قلت أرخت مات قطب همام

وعلى الجانب الآخر:

إنما الحاتمي في الكون فرد   وهو غوث وسيد وإمام

ووضعت فوق رأسه عمامة خضراء..

وعلقت حوله من التعاويذ والقصائد الشيء الكثير، حفظت من بينها:

أن يكون المدح فيكم سيدي   لنجاة العبد أقوى السبب
فأجرني من زمان جائر   لا يراعي حق أهل الأدب
كم مصاب هاضه قيل له   إن تخف ناب ضواري النوب
زر مقاماً بدمشق حرمًا   ثم قل جئتك يا ابن العربي

تحظ بالأمن وغايات المنى ... وتعدْ منه بأقصى الأرب

ومن قصيدة أخرى:

هو منهل للسائلين ومقصد ... للمذنبين وراحم المسكين
ما خاب راج قد دعاه مؤملاً ... إلا المراد أتاه بالتسكين
يمِّم حمى أعتابه والثم ثَرَى ... ترب شذا نفحاته النسرين
قد جئت قطب العارفين بذلتي ... أرجوك يا عربي وفاء الدين

ما كان أو ما قيل..

أوما أنيس بالتوسل قائلاً ... إن صبت ضيماً لذ بمحيي الدين

إلى آخر ما هنالك من الشركيات والبدع والتوسلات.

قلت لسادن القبة، وهو شيخ معمم يلزم عتبتها ويتقاضى من كل داخل شيئاً من المال، قلت له: من بنى هذه القبة؟ فقال: لقد كانت من قبل كهفاً موحشاً حتى تداركها الله بالرجل العظيم السلطان سليم، جزاه الله خيراً، فبنى هذه القبة على ما ترى. ثم يستطرد قائلاً: إن الشيخ محيي الدين قد أخبر بهذا في حديث قبل موته قائلاً: (إذا دخل السين في الشين ظهر قبر الشيخ محيي الدين). وهذه العبارة المرموزة المراد بها إذا دخل السين، أي السلطان سليم، في الشين، يعني في الشام!!

هَوَسٌ وسخفٌ وهرجلةٌ ألصقت بالإسلام، فاللَّهم اهد ضالَّ المسلمين.

إن صاحب هذا القبر هو صاحب كتاب «الفصوص» وكفى به شاهداً على نفسه، وهو الذي يقول في كتاب الوصايا اليوسفية: يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه المتحكم فيه وأن الله يتجلى له في صورته كما قال تعالى في حق الرسول(ﷺ) من أطاع الرسول فقد أطاع

الله، فإن الله مخبر إذا أخبر عن نفسه وأخبر عنه غيره فإنه قد تجلى لك في صورة ذلك الغير(١)!.

أما رأس يحيى بن زكريا ـ كما يقولون ـ فهو واقع في قلب المسجد الأموي وله قبة وشباك وله نصيبه من التمسيح والدعاء، وبجانب المسجد الأموي قبر القائد الكبير صلاح الدين الأيوبي، وإلى جانبه في القبة قبر عماد الدين زنكي وقبور أخرى تزار ويتوسل بها.

أما ابن تيمية فإن الله قد أراد أن يكون قبره على ما عليه عقيدته من عدم تعظيم القبور والتمسح بها والطواف حولها فهو في مكان هناك منزوٍ في حرم الجامعة السورية؛ وبجانبه أحد قبور أهل السنة وأظنه ابن كثير، وكذا شمس الدين ابن القيم، وهناك قبور أخرى كثيرة كقبر زيد بن ثابت، وأبي هريرة، ومعاوية، وكثير من التابعين والقواد العظماء. ومعظم ما يقال عن هذه القبور كله تكهنات وتحريات لقبورهم معظمها من وضع الشيعة والصوفية وإلا فليس هناك دليل مادي يثبت قبر كل فرد بعينه..

أما القبر الأول الذي يحظى بحج الجماهير إليه فهو ما يقال عن قبر زينب بنت علي بن أبي طالب، فلقد وجدت سواداً كثيراً من الناس ملأ قبة القبر ثم البناء المحيط بالقبة ـ وما أكبره ـ ثم الفضاء والشجر المحيط بالقرية التي فيها القبر، ووجدت المقاهي والمطاعم والسيارات تغدو وتروح على حساب الزوار، ووالله ما شبهت هذا الجمع الغفير الذي يموج بعضه في بعض إلا بالناس حول الكعبة ويا بعد ما بين المظهرين!!

(١) شرح الوظيفة الشاذلية للشيخ محمود أبي الشامات ص ٢١.

وهذه البناية الفخمة العظيمة والمسجد حولها والقبة المزخرفة والتي جعل أعلاها من الزجاج الملون والمبثوث على صفة قنوان النخل المتعثكلة قام بعمارتها محمد بن حسين نظام وأولاده من طائفة الشيعة!

ولهذا البناء بابان، باب البناء العام وباب القبة المتوسطة البناء، وتجد مكتوباً على يمين الداخل من الباب الأول أبياتاً منها:

تـدخـل الأمـلاك فـي أنـحـائـهـا فـادخـلـوهـا بـسـلام آمـنـيـن

دمشق المسلمة

لم تحل مظاهر المدنية وامتزاج الشعب السوري بعشرات العناصر والأجناس وانهماكه في تيار العمل وتكاثر المؤثرات الأجنبية حوله، لم تحل بينه وبين إسلاميته ومغالاته فيها وتعصبه لها، فهو شعب إسلامي أصيل.

تشرف على دمشق من بعض الجبال أو الروابي فترى منائر المساجد السامقة ناشزة سائر الأحياء، ويأزف وقت الصلاة فتتجاوب أصوات المؤذنين من كل صوب: الله أكبر، الله أكبر.

وتدخل المساجد فترى الساجدين والراكعين والقائمين والقارئين، وتنظر من هؤلاء فإذا بهم الأطفال والشباب والكهول والشيوخ، وتتلمس الدافع فتجده قلبياً صرفاً، لا أثر لهيئة دينية أو سلطة حاكمة، ولا حتى خجل أو حياء في ذلك.

وترى المساجد مبنية أحسن بناء وأتقنه، ومضاءة بثريات الكهرباء، ومفروشة بالسجاد الفاخر أو البسط الجميلة، وترى الساعات الثمينة والتقاويم معلقة على حيطان المساجد، وتغص خزاناتها الخشبية بالمصاحف والكتب، وإلى جانب كل مسجد دورة مياه، وفي وسطه بركة تفور دائماً بماء الفيجة. . وفي كل وقت ترى الفقراء يصطفون داخل المسجد فينالون من حسنات المحسنين الشيء الكثير. ويحافظون على سنة التراويح في رمضان محافظة تامة، وفي حلقات العلماء في المسجد الأموي وغيره لا تكاد تسمع صوت المدرس من كثرة الناس الملتفين

حوله. وفي الأسحار تسمع للمساجد دويًا بالقراءة والتسبيح في رمضان. وقد تعاقدت الحكومة السورية مع المقرىء المصري الشهير الشيخ عبد الباسط عبد الصمد أن ينتقل إلى دمشق أثناء شهر رمضان فكان صوته يجلجل في كل حين بالإذاعة السورية وفي المساجد الكبار والمنتديات، ولا تكاد تمر بمكان إلا وتسمع هذا الصوت الرخيم يترنم بالقرآن وتجد الناس حوله مصيخين خاشعين.

كل هذا حق لا مغالاة فيه ولا إطراء.. على أني لا أقول إن عموم دمشق بهذه الصفة، فإلى جانب ما أسلفت توجد الليالي الحمراء والملاهي والسينمات والمقاهي واللعب وو.. الخ، ولكن في حدود وتقييدات ومراقبة تامة، فليس الحبل فيها على الغارب كما هي الحال في لبنان وغيرها..

وإذا كنا نلوم سوريا على وجود هذه الأشياء فيها وعدم استطاعتها التغلب على هذه المفاسد، ففي نفس الوقت يسرنا أن نرى فيها هذه المظاهر الدينية الجميلة وهذا الشعور الإسلامي الخالص، فعسى أن نراه يزداد يوماً فيوماً حتى يأخذ على يد السفيه ويأطره على الحق أطراً ويغير المنكر بيده ولسانه وقلبه، ونراهم يتناهون عن المنكر فعل بين ظهرانيهم.

وليكون عملنا خالصاً صواباً مقبولاً فيما تؤديه من هذه العبادات التي تقوم بها، لا بد لنا من أن نكون متبعين غير مبتدعين ومحكمين كتاب الله وسنة رسوله، ونابذين قول: الصوفي فلان والولي علان.

وهنا لا بد لي من أن أقول كلمتي في هذا الموقف:

إن هذه المساجد التي تغص بألوف المصلين ومظاهر العبادة التي سردناها آنفاً قد شابها عند البعض شيء من البدع التي ما أنزل الله بها من

سلطان، وألحق بها شيئاً من الطفيليات على الدين الإسلامي، ونحن نعلم من الدين نفسه أن العبادة توقيفية لا قياس فيها وأن الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يقول: كل شيء ليس عليه أمرنا فهو رد، ويقول: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وسنتي. فمن أين أتينا بعمل هذه الحلقات في المساجد وترديدها صوتاً منتظماً وهزها لرؤوسها وأكتافها؟!

ومن أين أتينا بهذه الموشحات الطويلة نرددها بلحن شجيّ وبيان قويّ؟!

ومن أين أتينا بأن المسلمين المجتمعين في مسجد واحد يصلون ست جماعات وسبعاً، وأكثر ـ هذه خلف هذه ـ نظراً لأن هذا شافعي وهذا حنفي وهذا وهذا . . الخ؟!

ومن أين أتينا بأنه بعد كل تسليمة من التراويح نردد بصوت واحد ابتهالات وتعاويذ وتنطعات ما كانت من التراويح في قبيل ولا دبير؟!

ومن أين أتينا بهذا الملحق بعد الأذان الشرعي وهو لم يقله بلال ولا أبو محذورة ولا غيرهما من المؤذنين بين يدي من شرع له الأذان؟!

ومن أين أتينا بالاجتماع في المساجد لقراءة دعاء ليلة النصف من شعبان على نظام خاص وبدعاء خاص، وقد أنكر ذلك العلماء وفندوه، قال النووي: «الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب وصلاة ليلة النصف من شعبان» هاتان الصلاتان بدعتان منكرتان ولا يغتر بذكرهما في كتاب قوت القلوب والإحياء للغزالي ولا في الحديث المذكور فيهما فإن كل ذلك باطل».

وقال القاضي أبو بكر بن العربي ـ المالكي لا الصوفي ـ في كتابه «المعارضة»: ليس في ليلة النصف من شعبان حديث يساوي سماعه.

وهناك ما أسمعه سائداً بين العوام من الحلف بغير الله، والبذاء في القول.. كل هذه الأمور تقدح في الدين وتنقص ثوابه، وتجر الأمة إلى المهاوي والدركات..

فلنجنب أنفسنا كل هذه المبتدعات، ولنحرص على أن تكون جميع أعمالنا خالصة لله، موافقة لما جاء به رسول الله. ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

العروبة في دمشق

تتخذ العروبة في دمشق شكلها الحقيقي وطابعها الإسلامي، وتشعر وانت فيها بتطبيق كثير من مبادىء العرب الأقحاح، فاسماء الشوارع وثكنات الجيش والفنادق والميادين العامة والمدارس والمساجد والمكتبات كلها تحمل اسماء إسلامية عربية، فهذا شارع ابي فراس، وتلك ثكنة طارق بن زياد، وذاك فندق الرشيد، وهذه مدرسة ليلى الأخيلية، وهذه حديقة إشبيلية، وذاك مسجد خالد، كل هذا تجده سائداً متبعاً في عموم احياء دمشق. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على هذه الروح الطامحة العربية الأصيلة التي تريد أن ترجع بالعرب والمسلمين إلى ماضيهم المجيد وتغرس في قلوب ابنائهم وعامتهم ذكرى هؤلاء الأبطال الذين خلدوا للعروبة مآثر ومفاخر وتركوا لها دوياً في اذن الكون.. هؤلاء الابطال يريد الدمشقيون من إعادة ذكراهم ورفع اسمائهم فوق مؤسساتهم يريدون معاني سامية واهدافاً جميلة ينشا عليها ابناؤهم ويلهمون تاريخ امجادهم عن هذه الطريق وعن غير هذه الطريق.

وليس الأمر قاصراً على المؤسسات فحسب، بل تجد أسماءهم غالباً تتصف بهذا المبدأ وتحمل هذا الطابع، فكثير من الأسماء العربية التي لم نعد نسمعها إلا في بطون الكتب وجدتها منتشرة في دمشق، وما أكثر ما سمعت بين شباب الجامعة السورية الذين اتصلت بهم اسم نزار وزهير وخالد وعدنان وأسامة ونبيه ونديم وعصام. . الخ.

ويسرني أن أقول إن هذه الأسماء لا يحملها شباب مدلل مائع قد فتكت فيه المدنية ونفثت فيه سمومها وراح يعنى بتصفيف طرته وتجميل غرته ويغازل الحسان ويلوك اللبان لا معاذ الله، فلقد وجدت شباباً جلداً

خشناً طموحاً مثابراً أبيًا، يحمل الشمم والمروءة، وتقدح عرامة الشباب وفورته بين عينيه، وبمثل هؤلاء تفخر الأمة وتنال حقها وافياً موفوراً. . أما الشباب الذي هجيراه تجميل بزته والعمل من أجل كرسي وظيفته فهؤلاء:

ثكلتهم الآباء إن حياتهم غَمُّ الصديق وفرحةُ الأعداءِ

السلفية بين صفوف الجامعة وحلق العلماء

قلت في غير مناسبة إن الفكر الإسلامي الآن متجه لتصفية الإسلام مما علق به من أدران الشبهات والخرافات والتضليل والأخذ به نقياً خالصاً كيوم جاء به محمد بن عبد الله، وكما عرفه صحابته وسلف هذه الأمة الذين مثلوا الإسلام أصدق تمثيل، وفهموه كما ينبغي أن يفهم، أما حينما لطخه خلف هذه الأمة بكل مشين ووصموه بكل نقص وتضليل بغية التحقيق لأهدافها والدعاية لمبادئهم والتعظيم لعمائمهم والحفظ لمصالحهم.. فهنالك شالت كفة الإسلام وهان عند أعدائه، وظلت الأجيال تحمل إسلاماً أجوف خالياً من كل روح، بعيداً عن كل تقدم، ويومئذ قال أعداؤه: إنه دين يصلح لزمانه الذي شرع فيه!! ولا يتمشى وانطلاقات هذا العصر وتحليقاته، ولا يواكب عصر الرادار والتلفزيون وتحطيم الذرة.. قالوا هذا ومثله ومثله، ودللوا على ذلك بواقع أهله المشين. فجاء بعض شباب الإسلام الناشىء ووجدها قضية مدعومة بدليل، فصفق لها وحلق وغرب وشرق، وزعم أنه قبض على خاتم سليمان أو عصا موسى، وما علم أن الدعوى باطلة وأن الدليل ملغوم، وأن تفاهة واقع المسلمين انحدرت إليهم من أنفسهم لا من دينهم، وأن الصارم البتار لم يزل ولن يزال يحمل جوهره وفعاليته، ولكن اليد التي تحمله هزيلة شلاء لا تستطيع حمله ولا التدليل على مدى تأثيره.. هكذا واقع المسلمين مع إسلامهم..

فأدرك هذا الغيرة على الإسلام في كافة الأقطار الإسلامية فأعلنوها سلفية نقية وراحوا يدعون إليها ويعملون بها، وإذا قيل لهم أنتم وهابية وأنتم أتباع ابن تيمية، قالوا: نعم تجمعنا السنة المحمدية والرسالة الإسلامية.

وهكذا وجدت السلفية في دمشق بين صفوف الجامعة وفي حلقات العلماء يحملها شباب مثقف مستنير يدرس الطب والحقوق والآداب.

قال لي شاب منهم: ألا تحضر درسنا اليوم؟ فقلت: يشرفني ذلك. فذهبت مع الشاب لأجد فضيلة الشيخ ناصر الألباني محدِّث دمشق الكبير وحوله من يزيد على الأربعين طالباً من شباب دمشق المثقف، وإذا الدرس جار في باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده طرق الشرك. ومن كتاب التوحيد وشرحه فتح المجيد للمجدد الإمام محمد بن عبد الوهاب وحفيده رحمهما الله، فعجبت أشد العجب لهذه المصادفة الغريبة.

وأنصتُّ لأسمع درس الشيخ. وإذا بي أسمع التحقيق والتدقيق والإفاضة في علم التوحيد وقوة الضلع فيه، وإذا بي أسمع مناقشة الطلبة الهادئة الرزينة واستشكالاتهم العميقة حتى انتهى درس التوحيد وبدأوا في درس الحديث بالروضة الندية، وهنا سمعت علماً جمًّا وفقهاً وأصولاً وتحقيقاً، وهكذا حتى انتهى الدرس.

ولم أزل طيلة مقامي بدمشق محافظاً على درس الشيخ، وقد انتهوا في علم التوحيد من كتاب فتح المجيد وبدأوا في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ وفي كل حين يزداد عددهم وتتجدد رغبتهم ويكتبون وينشرون. ومن تتبع مجلة التمدن والإسلامي وقف على ما لهذا الشيخ وتلامذته من نشاط وجهود ولقد لمست بنفسي لهم تأثيراً كبيراً على كثير من الأوساط ذات التأثير في الرأي العام مما يبشر بمستقبل جد كبير لهذه الدعوة المباركة.

ومما أحب أن أشير إليه أن لهؤلاء الجماعة مركزاً يأوون إليه

ويتلقون دروسهم فيه وقد أثث واتخذت فيه مكتبة.

كان هذا الشاب الذي هداني إلى هؤلاء الجماعة عضواً عاملاً في جماعة الإخوان المسلمين بسوريا، بل من شخصياتهم اللامعة، واسمه زهير شاويش، وقد طلبت إليه أن يعطيني فكرة عن هذه الجماعة السلفية ومتى تأسست وكيف سيرها.. الخ، فأملى عليّ ما يلي:

«لا أعرف على وجه التحديد الوقت الذي بدأ فيه الشيخ اجتماعاته وكان أول اتصالي به عام ١٩٤٥م وكان يقرأ مع ما يقرب من ثلاثين أخاً كتاب زاد المعاد، وخرج من هذه الدراسة بكتابه القيم «التعليقات الجياد على كتاب زاد المعاد»، وهو مخطوط، وقد طلب مني الشيخ حامد الفقي عام ١٩٥٣م أن أطلبه من الشيخ وأنه على استعداد لطبعه بجميع الشروط التي يضعها الشيخ، ولا أعرف السبب الذي منع الشيخ من إرسال كتابه للشيخ حامد، ثم انقطعت عن الشيخ حتى عام ١٩٤٩م حيث قام الشيخ مع إخوانه بإحياء سنة صلاة العيد خارج المدينة».

وقرأ مع بعض إخوانه في ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠م نخبة الفكر.

ثم بدأ مع إخوانه قراءة كتاب الروضة الندية بدار الأستاذ عبد الرحمن الباني، وقد اتسعت هذه الحلقة حتى أصبح الذين يحضرونها يتراوح عددهم بين ٤٠ ـ ٦٠ وأكثرهم من أهل الرأي والعلم. ويقرأ في جلسة ثانية كتاب فتح المجيد بناء على اقتراح الأستاذ عبد الحليم محمد أحمد، وهو مدرس مصري درس في الشام ثم في عمان وقد قدم له بقراءة رسالة تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، ويحضر هذه الجلسة عدد مماثل لعدد الجلسة الأولى.

وهناك جلسة شبه خاصة يدرس فيها كتاب الباعث الحثيث في

اختصار علوم الحديث، وكتاب طبقات فحول الشعراء. وبعد أن انتهى الإخوان من قراءة كتاب أصول الفقه لخلاف وكانت تنعقد هذه الجلسة بدار الأستاذ علي الطنطاوي، وبعد سفره إلى باكستان عقدت بدار الدكتور أحمد حمدي الخياط.

وهناك درس مع بعض علماء الشام في التفسير وما زال هذا الدرس مستمرًا حتى اليوم، ويحضره عدد يتراوح بين ١٠ ـ ٢٠، وقد مضى على استمراره عدة سنوات. ودرس في كتاب الترغيب والترهيب ويتراوح عدد حضوره بين ١٥ ـ ٢٥.

ومن بين الإخوان الذين يحضرون جميع أو بعض الدروس: الأستاذ أحمد راتب النفاخ المدرس في الجامعة السورية، الأستاذ عبد الرحمن الباني مفتش دروس الدين في وزارة المعارف، عبد الرحمن نحلاوي مدرس الفلسفة في ثانويات دمشق، رشاد رفيق سالم يُحضِّر دكتوراه في الجامعة المصرية عن ابن تيمية وعضو لجنة الشباب المسلم المصرية، والأستاذ عصام عطار المدرس في المعهد العربي وعضو الهيئة التشريعية للإخوان المسلمين في سوريا، محمد مريدان (محامي) وموظف في ديوان المحاسبات، خالد صائمة (محامي)، الدكتور نبيه غبرة (طبيب)، الأستاذ محمد الصباغ مدرس الأدب العربي في ثانوية درعا.

وهكذا فإن هذه الدروس تجمع أمثال من ذكرنا من أهل العلم والفضل والأدب وممن يرجى منهم في المستقبل القريب إن شاء الله أن ينشروا السلفية في كافة ربوع سوريا وغيرها إذا عرفنا أن منهم السوري والأردني والمصري والمغربي.

قلت في مطلع هذا البحث إن العالم الإسلامي أخذ ينصاع إلى

السلفية ويدعو إليها قادته ومفكروه حتى لقد وقف المراقب العام للإخوان المسلمين الأستاذ مصطفى السباعي يذيع على العالم من محطة إذاعة دمشق محاضرتين قيمتين إحداهما عن ليلة النصف من شعبان، والأخرى عن ليلة الإسراء والمعراج نادى فيهما بعقيدة السلف وأهاب بالمسلمين إلى لزومها وترك هذه الترهات التي لا يعرفها الإسلام، مما أثار عليه حفيظة من يعقدون فيهما الحلقات ويرتلون الترانيم بأشجى الأصوات، ولكنها أصوات مخنوقة في طريقها إلى الزوال.

قال الأستاذ في محاضرته: «أو ما يعتاده الناس من الاجتماع في المساجد لقراءة دعائها المشهور ـ يقصد ليلة النصف من شعبان ـ بالنظام الذي سمعناه في هذه الليلة، وأما ما يقوم به بعض الناس من صلاة خاصة فيها فهو شيء لم يرد عن رسول الله ﷺ، ولا عن صحابته، وأول من أثر عنه تخصيص هذه الليلة بالعبادة خالد بن معدان ومكحول الشامي؛ وهما من التابعين، ثم شاع ذلك عنهما».

ويقول بعدئذ: «أما هذا الدعاء المشهور الذي يقرأه المسلمون في هذه الليلة، فلا يعرف له أصل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن السلف الصالح، بل لم يكن معروفاً حتى القرن الثامن الهجري فابن الحاج، في كتابه المدخل، وهو من علماء القرن الثامن الهجري الذين عنوا بإنكار البدع والمواسم التي أحدثت في الدين، أنكر كل ما يفعله الناس في ليلة النصف من شعبان، ولم يذكر شيئاً عن هذا الدعاء، ولو كان معروفاً في عصره لتعرض لإنكاره حتماً. وإذن فهذا الدعاء من صنع المئات المتأخرة من السنين، وأغلب الظن أنه لم يوجد مرة واحدة، بل كان أهل كل عصر يزيدون فيه بعض الجمل والأدعية حتى انتهى إلينا

بهذا الشكل، وهو من الناحية الشرعية غير جائز، ففيه الزعم بأن ليلة النصف من شعبان هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وهذا زعم باطل باتفاق جمهور العلماء ولا عبرة بمن شذ عن ذلك من المفسرين. . ».

ويسترسل قائلاً: «وبعد، فهذا هو رأي الشريعة فيما يفعله الناس من عبادة ودعاء في هذه الليلة، وقد يفجع فيه العامة إذ يرون أن ما يعتقدون من شعائر الدين في هذه الليلة ليس فيه أثر عن النبي ﷺ ولا عن صحابته، ولكن الحق أحق أن يتبع، ودين الله لا يؤخذ بالهوى ولا بالعاطفة، وإنما هو دين ذو حدود مرسومة ومعالم واضحة وما أحرى المقامات الدينية عندنا بأن تعلم الناس أحكام دينهم وتشرح لهم أن ما هم عليه في مثل هذه الليلة ليس إلا عادة موروثة لا شريعة متبعة. . الخ. . الخ».

وما قاله هذا العالم الجليل والمرشد المخلص عن هذه البدعة يصدق على مئات البدع التي طغت واستفحلت بين ظهرانينا، فعسى أن يأتي اليوم الذي نمحو فيه أخراها من الوجود إلى غير رجعة، وما ذلك على الله بعزيز.

وممن اتصلت بهم من علماء السلف في دمشق فضيلة الشيخ بهجة البيطار، العالم الشهير وصاحب كتاب الثقافتين الصفراء والبيضاء، وله مواقف تذكر فتشكر للذبِّ عن عقيدة السلف.

وفضيلة الشيخ عبد الفتاح الإمام رئيس لجنة أنصار الفضيلة بدمشق، وهو عالم فاضل جليل، له كفاح ونضال ودعاية كبيرة لدعوة السلف، وله ثمانية عشر مؤلفاً، من بينها كتاب «الإسلام»؛ وكتاب

«العلم والعقل شاهدان بعظمة الله»، و«عظمة الإسلام»، و«الإسلام والنصرانية»، و«الحضارة الإسلامية». . الخ.

ومن الجدير بالذكر ما أثير أثناء مقامي بدمشق من بحث حمي فيه الوطيس بين السلفيين والخلفيين حول حياة الأنبياء في قبورهم، فتصدى علماء السلف لخصومهم القائلين بأن الأنبياء يحيون في قبورهم حياة مستقرة كحياتنا، فأدحضوا حججهم وأبطلوا زعمهم وأبانوا للمسلمين حقيقة الإسلام حول هذه الناحية.

وممن تصدى لبيان الحقيقة وتنوير عقول الناس وأذهانهم فضيلة الشيخ محمد بهجة البيطار في الجامع الأموي، وفضيلة الشيخ علي الطنطاوي من محطة الإذاعة السورية فشفيا وكفيا.

وللأستاذ الطنطاوي مواقف مشهورة منها ما كتبه في الرسالة عن التوسل والوسيلة عام ١٩٥٢م، وخطبة في مسجد الجامعة السورية، ومقالاته في بعض الجرائد السورية، وتفسير سورة الفاتحة الذي ألقاه في هذا العام من محطة الإذاعة السورية.

وقد علمت من الأخ زهير شاويش أن في حماه وحلب واللاذقية ودير الزور وبقية المحافظات السورية وثبات من علماء وشباب مثقف نحو المنهج الإسلامي الصحيح، الأمر الذي يبشر بخير ويجعلنا نتفاءل بخير. وكذا في بيروت حركة مماثلة لحركة دمشق، وفي طرابلس جماعة من تلامذة الشيخ محمد رشيد رضا وأقاربه يقومون بالدعوة خير قيام ويرسلون الوفود إلى الجبل وبلاد الساحل السوري للدعوة.

العلم والتعليم

لم نجد ناحية تحتل المكان الأول من قلوب الشعب ويعنى بها عناية تامة ويتفانى في سبيلها مثل العلم، بل أقول إن الشعب السوري مسعور ومنهوم وراء العلم، ولا نجد سبباً لهذه الرغبة الملحة والتسابق العجيب، إلا يقظة الشعب السوري وحياته حيث أدرك عموم أفراده أنه لا حياة لأمة إلا بالعلم ولا قيمة لها في الوجود بدونه، وحتى الفقراء تجدهم يقتطعون جزءاً من قوتهم وينفقونه على تعليم أولادهم وشراء الكتب لهم في مراحل الدراسة المتوسطة والعالية..

وليس أدل على ذلك من أن ميزانية وزارة المعارف تقارب (٥٠) مليوناً من الليرات السورية من أصل الميزانية العامة للدولة وقدرها (٢٦٥) مئتان وخمس وستون ليرة سورية عدا ما يؤخذ من كل طالب يدرس في المتوسط أو العالي، وهو يتراوح بين ٨٠ ـ ١٥٠ ليرة سنوياً مع ملاحظة أن عدد الشعب لا يزيد على ثلاثة ملايين نسمة، وأن الرواتب التي يتقاضاها الأساتذة عندهم ضئيلة جداً بعضها لا يصل إلى ما يتقاضاه الطالب عندنا في الأقسام العالية كمكافأة على طلب العلم!

ومع ذلك فليس كل من أراد الأستاذية أدركها، بل دونها خرط القتاد، إذ تجري مسابقة في أول كل عام لمن يتقدم طالباً أن يكون أستاذاً في وزارة المعارف، من حملة الشهادة الثانوية والعالية ومن يحصل على الرقم الذي تضعه وزارة المعارف ـ وما أشد مناله ـ يعين مدرساً بعد التأكد من صلاحيته في جميع النواحي!

ويا بعد ما بين هذا وبين من إذا عرف أنه يقرأ ويكتب عيِّن أستاذاً فالأول يخرج شباباً ناضجاً مكتملاً، والثاني يخرج شباباً جاهلاً مثله والأول يتقاضى شيئاً ضئيلاً بقدر ما يقيم أوده، والثاني يحملها في نهاية كل شهر صرراً وبدراً.

وليس هذا هو كل التعليم في الشعب السوري، بل أكاد أقول إنه نصف التعليم، أما النصف الآخر، ففي المعاهد والمدارس الخاصة، ودور اليتامى، ومدارس البنات الخاصة، والملاجىء والمؤسسات الشعبية، وحلقات المساجد، وبيوت العلماء، والمدارس الليلية لمحو الأمية و. . . و. . الخ.

ولنأخذ نموذجاً واحداً للتدليل على ذلك هو المعهد العربي الإسلامي في قلب دمشق وهو معهد ثانوي يضم من الطلبة الذكور ٥٨٠ نهاراً و٢٠٠ ليلاً، ومن الإناث ٣٣٣ نهاراً. وهذا المعهد أنشىء عام ١٣٦٤هـ وهو يحمل طابعاً إسلامياً أراده له مؤسسوه الذين أنفقوا أموالهم في إنشائه، وعلى الرغم من أنه يسير على منهج وزارة المعارف كغيره من دور التعليم إلا أن للناحية الدينية فيه الأقدمية. والطالب في هذا المعهد يدفع ما بين ٨٠ ـ ١٥٠ ليرة سورية حسب درجته العلمية.

هذا أنموذج من مئات النماذج التي تمثل نشاط الشعب السوري في تثقيف أبنائه وتهيئتهم لمستقبل علمي مرموق.

وأقول ـ والأسى يحزّ في نفسي ـ هل هؤلاء الرجال أكثر منا أموالاً؟ الواقع يكذب ذلك! أو هل هم أحوج منا إلى الثقافة وأقول إن العكس أصح! أو هل هم أسخى منا نفوساً ونحن ننفق الألوف المؤلفة فيما أدري وما لا أدري؟ وأقول إنهم أسخى منا نفوساً في بذل الأموال

في وجوهها! وكم من الأسئلة وعلامات الاستفهام أوجهها إلى شعب لا أدري ماذا أنعته به بين شعوب العالم، ولا أدري كيف يتصور نفسه، وما هي هذه الدماء التي تجري في شرايينه، هل خلقها الله من الثلج؟

إن نشاط الشعوب ليس في تعليم أبنائهم فحسب، بل هناك ألف مشروع ومشروع يساهمون فيها مساهمة فعلية.. فهناك دور العجزة والملاجىء والجمعيات الخيرية والصدقات، كل ناحية من هذه النواحي وغيرها تقول إنهم قد برزوا فيها دون سواها؛ فأين يذهب بنا؟!

أثرياء الشعب ووجهاؤه عن هذا غافلون أو متغافلون، وشبابنا الكسيح لا يريد أن يتعلم إلا بنقود تملأ جيبه! وإذا كتب وقرأ فقد وصل إلى بغيته فلم يبق عليه إلا أن يتربع على كرسي الوظيفة، ويعلق النظارات على عينيه، ويكدس (الفن) و(الاثنين) و(الكواكب) والنجوم والأقمار على مكتبه ويأخذ يتحدث عما كان وما سيكون وهو أخلى من يراع. أما الأطباء والمهندسون والجيولوجيون والطيارون والأدباء والسياسيون، فسنظل نستوردهم من الخارج مع المأكل والمشرب والملبس.. والضحية هي ثروة البلاد ومستقبلها.. ونحن عن هذا غافلون، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!

فإذا كانت الحكومة قد كفتنا مؤونة التعليم وحاولت أن تجترَّ أولادنا إليه بالذهب، أفلا يكون منا أن نحمل أولادنا على تلقي العلم في جميع مراحله وندرك أن هذا في صالحه وصالحنا ونحاول أن نمهد لمستقبلنا حينما خسرنا حاضرنا؟!

ثم ألا يكون منا أن نثبت وجودنا فيقوم أهل كل حي منا وكل قرية وبلاد صغيرة بعمارة مدرسة فنية وتقديمها إلى وزارة المعارف لنساعدها

على أنفسنا ونطمئن إلى أن أولادنا يعيشون في مدارس منظمة متوفرة فيها الشروط الصحية والتصاميم المرعية، ونترك وزارة المعارف تتفرغ بميزانيتها لتثقيفنا؟!

عار عليكم يا أصحاب الملايين ومئات الألوف والألوف ألا تقدموا شيئاً لدينكم وأمتكم ووطنكم، في الوقت الذي لا تعرفون فيه للضرائب ذكراً إلا عند الأمم التي يخصص أثرياؤها جزءاً كبيراً من دخلهم لمشاريع بلادهم الخيرية وفي الوقت الذي درَّت عليكم فيه أخلاف الدنيا بدون إبساس؟!

ولي موعد معكم حينما أتعرض لبحث الشؤون الاجتماعية في دمشق.

ولنترك الأرقام ـ الآن ـ تتحدث عن التعليم في سوريا، وليجعل القارىء الكريم نصب عينيه أن هذه الأرقام التي ستمر عليه من أصل ثلاثة ملايين لا من أصل ثمانية ملايين، لئلا يتطرق القياس إلى ذهنه.

بلغت المدارس الابتدائية في القطر السوري ٢١٨٤ الرسمية منها ١٨٥٠ والأهلية ٢٩٦ والأجنبية ٣٨، للذكور منها ١٦٣٥ مدرسة وللإناث ٣٦٩، والمختلطة ١٨٠.

وبلغت المدارس الثانوية ١٦٤ مدرسة ٥٧ رسمية و٨٩ أهلية و١٨ أجنبية للذكور ١٠٧ وللإناث ٤٨ وللمختلطة ٩. والمدارس المهنية ١٣ مدرسة، ودور المعلمين ١٠ مدارس.

وبلغ عدد طلاب المدارس الابتدائية ٢٩٧١٨٥ والثانوية ٤٢٥٥١ والمهنية ٣٣١٠ ودور المعلمين ١٢٣٣.

وبلغ عدد المتحصلين على الشهادة الابتدائية في العام الماضي ١٩٨٤٠، منهم ١٥٨٣٢ ذكور و٤٠٠٨ إناث، وعدد المتحصلين على الشهادة الثانوية ٣٨٩٧ منهم ٣١٢٣ ذكور و٧٧٤ إناث.

وبلغ عدد طلاب الجامعة السورية ٦٣٤٥، منهم ٧٣٦ في كلية الحقوق، و٥٥٩ في كلية الطب بفروعه و٨٨٠ بكلية الهندسة، و٤١٥ بكلية الآداب، و٥٩٦ بكلية العلوم، و٢٩٦ بمعهد المعلمين العالي، والبقية في فروع كلية الطب للأسنان والصيدلة والقبالة والتمريض وأهلية التعليم الثانوي بالنظام الجديد وأهلية التعليم الثانوي بالنظام القديم، ودبلوم في التربية. وبلغ عدد المتخرجين من الجامعة في سائر الكليات لعام واحد ٧٩٨ طالباً. وهذه الأرقام حسب إحصاءات وزارة المعارف السورية لأول العام الماضي، ولا شك أن التعليم يسير في سوريا بخطى فسيحة ويتطور في كل وقت تطوراً كبيراً.

شباب الجامعة

لم يكن في حسباني وانا اتهيأ للذهاب لصلاة أول جمعة اصليها في دمشق وأول جمعة من شهر رمضان، انه يوجد في الجامعة مسجد تقام فيه الجمعة حتى جاء إليَّ احد الأصدقاء واشار بان نصلي الجمعة في ذلك المسجد، ولا إخاله اشار بذلك إلا عن قصد، فذهبنا إلى الجامعة لأول مرة، بالنسبة إليَّ طبعاً، وإذا بي امام مبنى فخم مترامي الأطراف تتقدمه حديقة ذات خضرة ونضرة، وإذا باللوحات الكبيرة مكتوب عليها بالخط العريض اسماء الكليات تحلي جدران الجامعة، وكان المسجد يتوسط حديقة الجامعة الداخلية، وإذا به يغص بمئات الشباب المصلين والقارئين، وإذا بالحديقة المحيطة به تموج بهم ايضاً وكل منهم يحمل مصحفه في يده وسجادته ويستظل باشجار الحديقة وحيطانها قارئاً ومصلياً وباب الجامعة لا يزال يكتظ بهم داخلين للصلاة حتى إذا حان وقت الصلاة رأيت مسجد الجامعة وحرمها كله كتلة من البشر يسمع لهم دوي كدوي النحل.. ولا غرو فشباب الجامعة يبلغون حوالي سبعة آلاف طالب وهؤلاء هم مشاعل المجتمع السوري ومثقفوه، فمنهم الطبيب والحقوقي والأديب والصيدلي والمهندس والعالم الخ.. فهم يحملون لواء مستقبل سوريا في كافة الميادين، وبيدهم توجيه الأمة في كافة حقولها. وإرادة الشعب ولا شك خاضعة لإرادتهم، وها هم يحملون الفكرة الإسلامية قلباً وقالباً، علماً وعملاً، روحاً وبدناً.. ها هم أولاً، يحبون في الإسلام ويبغضون فيه، وينشرون مبادئه السامية ومثله العليا في طبقات الشعب كافة.

إنني معجب بهذا الشباب أشد الإعجاب؛ ومتفائل بأنه سيكون على يده ـ إن شاء الله ـ فتح كبير في البلاد الإسلامية. فمما لا شك فيه أن هذا الشباب الحي اليقظ الذي يحمل هذه الروح العالية، والذي يتخرج

منه كل سنة ما لا يقل عن ستمائة شاب يحمل شهادة عالية وينخرط في سلك العمل في جهاز الأمة، إنه ولا شك سيكون له شأن وليعلمن نبؤه بعد قليل.

فيقظة الشباب في كل أمة هي عنوان كمالها، وهي المرآة الصافية التي ينعكس عليها مستقبلها..

فلتهنأ سوريا بهذا الكنز الثمين والثروة التي لا تعادلها ثروة، ولتفخر رافعة رأسها شامخاً أنفها بقادة ركبها وحداته يأخذون بأسباب النصر ويمسكون بزمام الزعامة غير هيابين ولا وجلين. ولتئن الأمة المسكينة من سائر الأمم التي فقد شبابها هذه الميزات ما شاء لها الأنين.

فالشباب الذي لا تكون المثل العليا رائده ورفع شأن دينه ووطنه هجِّيراه شباب تافه لا قيمة له في الحياة، وليس بينه وبين الأنعام السائمة فرق إلا بالمنطق. فعجيب من شباب سوريا الذي ربض الاستعمار الغاشم على صدرها ردحاً من الزمن وحاول كبت كل معنى من المعاني السامية فيها ما واتته الظروف وما تسنى له الكبت، وغزا الشعب السوري بدعارته ومجونه وخلاعته التي لم يخلق في الدنيا لها مثيل.. وفورة الشباب وحرارته وخلقه وتركيبه ـ ولا سيما في هذا القطر ـ هي أشد استجابة وأعظم انقياداً لهذا المجون السافر الذي لم يقم دونه وازع سلطان ولا رجال دين.. ومع ذلك كله فلم تفل هذه الأشياء من غربه، ولم تكل من حده، ولم تضعف معنويته، بل زادته صلابة وقوة واستبسالاً في الحفاظ على دينه، والجهاد الصادق في سبيل شرفه.. فهذا هو الشباب الذي يخلق العجائب ويخلد الأمم ويكتب التاريخ ويملي إرادته ويفرض احترامه وتستجيب له الدنيا راغمة.

أما الشباب الخانع القانع المستكين في ميدان الجهاد والشرف والعزة، والمزهو المغرور المائع، السادر في شهواته وملذاته، العازف عن العلم والعمل، فأفّ له من شباب، ولأمته الويل ولأمه الثكل.

وما أكثر هذا بين شباب العرب والمسلمين.. تراه فتعجبك بزته ويبهرك مظهره، ويحنقك لينه وتبختره، فتظن أنه من أرباب الملايين ومن أهل الحظوة المترفين، فتسأل عن ماله وإذا به دريهمات يقبضها كل شهر من إدارته التي يعمل فيها أو من معهده الذي يتلقى العلم فيه.

وتسمعه يتكلم عن الاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية والديكتاتورية والشيوعية والنازية والفاشستية، فتظنه يصدر عن ثقافة واسعة وعلم جم وأدب متين، وإذا به قد هجر الدراسة منذ أن خط وكتب وتوصل إلى منبر الوظيفة، وإذا ثقافته ضحلة فجة. وكل ما يملك أنه سمع الغير يقدس أدب برنارد شو وتولستوي وجيته. وو.. الخ من أدباء الغرب، فأكبَّ على قراءة كتبهم ليتحدث عنهم فيرى الناس أنه قد تخطى الأدب العربي بعد أن حذقه ولكنه وجد الأدب الغربيَّ أمتن منه ولذلك فضله.. وهكذا كان شأن كثير من شبابنا. ولا أغالي إذا قلت إن أهم المقومات التي جعلت شباب سوريا بهذه المثابة هي الأستاذ مدرساً ومحاضراً وخطيباً!! لقد وقف خطيب القوم بعد أن تكامل عقدهم في الجامع وحديقة الجامعة، فبدأ حديثه عن رمضان، فقلت في نفسي: ماذا عساه أن يتكلم به؟ وهل تراه يأتي بجديد وقد سمعنا كل ما قاله الواعظون في رمضان مما دون في كتب ابن الجوزي وأشباهه؟ وإذا به يهز المشاعر ويحرك النفوس ويجيد ويفيد مما جعل الحاضرين يصيخون إصاخة المستزيد، ويخشعون خشوع المستفيد. تكلم عن رمضان شهر

التربية وقوة الإرادة، وتكلم عنه شهر السر بين العبد وبين ربه، وتكلم عن شهر الجهاد في سبيل الله، وتكلم عن شهر العبادة والقرآن، فأثار الشجون وأبكى العيون.

ويوم يكون خطباء منابر المسلمين من هذا الطراز، يتدفقون تدفق الأتيّ ويستصرخون استصراخ النذير ولديهم من الخبرة باجتلاب قلوب السامعين وانتزاع إعجابهم مما يجعل موعظتهم تتغلغل إلى سويداء القلوب، وبيانهم يفعل كفعل السحر. . يومئذ يستيقظ الغافل ويتئد المغرور، ويتحرك المتكاسل، ويزداد الذين اهتدوا هدى.

ويومئذ تتحرك عاطفة الغنيّ فيفيض الخير في مجتمعه، ويفور دم الشباب فيفعل العجائب في إحياء أمته، ويخلص الزارع في زراعته، والتاجر في متجره؛ والصانع في مصنعه، وتتحد كلمة المسلمين ويقوى جانبهم.

وما أحرى الخطباء بأن يوقظوا المسلمين ويؤدوا وظيفة المنابر في الإسلام، وأن يستشعروا ما فعله المنبر الأول من قلب وجه التاريخ وتغيير نظام العالم وإنشاء أمة أصاخ لها الكون وانقادت لها المعمورة وأنقذت الإنسانية، فكان صاحبه، عليه الصلاة والسلام، إذا خطب احمرّ وجهه وعلا صوته وانتفخت أوداجه، فكأنه منذر جيش يقول صبحكم أو مساكم.

ثم تعاقب على هذا المنبر رجال أعطوه حقه؛ ووجهوا الأمة الإسلامية من فوق خشبته؛ ولم تأخذهم في الله لومة لائم ولا سطوة حاكم. وبذلك كانت المنابر هي الصحافة والإذاعة والنوادي؛ وهي الأداة الوحيدة التي توجه الجمهور وتسوسهم.

أما حينما انقسمت كلمة المسلمين وذهبت ريحهم؛ فقد أصبحت المنابر أبواقاً للطوائف؛ وأداة لمدح فلان والدعاء له؛ وتهجين سياسة الآخر والدعاء عليه.. وأصبح الناس لا يسمعون إلا هراء من هذا النوع.. حتى جاء وقت التزم فيه خطباء المساجد ترديد خطب مدونة من مئات السنين.. وهي؛ على جلالة قدر مؤلفيها وقوتها، تحتاج إلى من يضيف إليها ما تعالج به حالة الناس اليوم؛ وما وقعوا فيه من أشياء لم تكن موجودة في عصر أولئك.

فعسى أن نأخذ من قديمنا ما يلائم حاضرنا؛ ونحاول معالجة حاضرنا بما يتفق وحالة أهله ولا نتنكر لماضينا، وإنّا إن شاء الله لفاعلون.

الجامعة السورية تحتفل بطه حسين

كان رئيس الجامعة السورية قد وجه دعوة إلى حضرة الدكتور طه حسين ليلقي محاضرة عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سوريا، وكان الأسبوع الذي قدمت فيه إلى دمشق هو أسبوع طه حسين، فالصحافة قد احتفت بهذه الزيارة، وأحاديث الأدباء والمثقفين تحوم حولها. وقد وزعت بطاقات الدعوة على الألوف من الناس فتسابقوا لحضور هذه المحاضرة، ومن لم توجّه إليه الدعوة، حاول أن يتحصل على بطاقة بأي ثمن، وهكذا حتى غص مدرج الجامعة الكبير، وامتلأت الغرف، وازدحمت الشرفات (البلكونات)، ثم بدأ الدكتور يلقي محاضرته، وظل الناس مصيخين لكلام يسمعونه على لسان كل أديب وفي الكتب المدرسية ومن أفواه الأساتذة؛ ولكنهم طامعون في هذه المحاضرة الموعود بها منذ سنتين أن يفاجئهم الدكتور فيها بوثبات فكرية أو مفاجآت بديعة أو آراء جديدة، ولكنه انهى محاضرته مثلما بدأها والقلوب تتشوق والنفوس تتطلع، وخرج الناس يلتفت بعضهم إلى بعض: ترى ما هو الجديد الذي دعا له حضرة الدكتور طه؟!

وقد نشرت المحاضرة في الصحف في اليوم الثاني، وأذيعت من محطة الإذاعة السورية، وقرأها من لم يحضر إلقاءها ومن حضرها واتهم فهمه منها ولكنها هي هي.

وهنا لم يكن الشعب السوري ممن يغمض على القذى أو يسكت على المضض، فقد خرجت علينا جريدة (العلم) تحمل مقالاً بعنوان: (عميد الأدب العربي) للأستاذ حسين كنعان وضعت له هذه الجريدة مقدمة قالت فيها: (كانت هذه الصحيفة قد نشرت مقالاً لأحد الكتاب

السوريين ينتقد فيه بعض نقاط جاءت في محاضرة عميد الأدب العربي. . وقد جاءنا اليوم مقال حول هذا الموضوع. . ويفصح فيه كاتبه عن رأيه بصراحة وجلاء. .).

والمقال ظاهره دفاع عن الدكتور طه وردّ على نقدته حول هذه المحاضرة، وباطنه يوحي بضد ذلك. فقد جاء في ثنايا المقال: فشهرة طه حسين قامت على قاعدة خالف تعرف. . وما إن أوفد إلى الغرب حتى خلعها (يعني العمامة) عن رأسه وحتى أخذ يميل إلى ترجمة المقالات الإلحادية لكبار الكتاب الغربيين ويترجم كتبهم، ومنها كتاب سماه (في الشعر الجاهلي) ادعى فيه أن القرآن من وضع محمد وصحابته!! ثم أنكر وجود أصحاب معلقات أمثال الشعراء: امرىء القيس وزهير والنابغة وغيرهم. . ثم عاد فنقض ما قاله، مجاراة وتسكيناً للخواطر، ومن هذه المتناقضات وهذه التقلبات، تولدت شهرته. . وقصارى القول فإن العاهة الإلهية كان لها أكبر الأثر في إكبار هذا الرجل والإعجاب به، ولولاها لكان كاتباً عادياً من كتاب مصر الذين يظهرون ثم يختفون ويعيشون ثم يموتون، فأنا من الذين يعتقدون أن المازني أخلد منه ذكرى لأن أسلوبه فيه المرح والدعابة والطرافة والمجون والحقيقة والمتعة واللذة.

أما الأستاذ علي الطنطاوي فقد كتب في مجلة (المسلمون) تعليقاً سخر فيه من الدكتور طه وتندر عليه، وقد جاء في التعليق:

(. . وسمعوا طبول الدعاية الضخمة التي قرعت لهذه المحاضرة، فحسبوا أنهم سيلقون فيها ليلة العمر، فتسابقوا إليها وازدحموا عليها، وبيعت البطاقة بليرة، وظنوا أن الدكتور سيريهم السها ويكشف لهم

أميركا، فإذا هو يريهم القمر ويكشف لهم إسبانيا؛ وإذا هو يبدأ ـ على عادته دائماً ـ بهذا اللت والعجن وأنه.. «جاء ليتحدث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية؛ وإن كان يسعده أن يتحدث عن بعض خصائص الشعر القديم في سورية، لأنه ليس من السهل الحديث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية؛ وأنه يجد المشقة والعسر في الحديث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية ولكن هذا العسر وهذه المشقة يحتملان في سبيل الحديث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية..».. الخ.

ثم يقول: (وبعد هذا الدهليز الملتوي الملتف الذي يمتد ميلاً.. أوصلنا إلى دار من ثلاث غرف، فقال كلاماً معاداً مكرراً موجوداً في كل كتاب من كتب الأدب المؤلفة لصفوف البكالوريا. ولحن لحنات في الإلقاء. تخيل حبة فبنى منها قبة؛ والقبة ولدت قباباً؛ والقباب شكلت مدينة؛ وما كانت المدينة قط إلا في هذا الخيال السقيم. وهذه مصيبة طه حسين، بدأت معه من يوم خلع عمامته الأزهرية وخلع معها عقله ودينه فأظهر من آثاره ما تخفي الهرة أمثاله من آثارها.. حين نشر ذلك الخزي الذي سماه كتاب «الشعر الجاهلي» ولا تزال معه إلى اليوم الذي اشتهر فيه حتى خلع عليه رئيس الجامعة السورية لقب سراج البيان؛ وضياء البلاغة؛ وعجيبة الأدب العربي.

وما لقينا أحداً ممن سمع المحاضرة إلا أحس أنه خدع بهذه الدعاية وأن المحاضرة تافهة الموضوع فارغة من المعاني؛ وأن إلقاء المحاضرة ـ على جودته ـ إلقاء غطي بلهجة واحدة ونغمة مستمرة لا يظهر عليه أثر الحياة ولا تتبدل رنته في استفهام ولا تقرير ولا مفاجأة ولا

تعجب، وأن محطاته كلها واحدة تنتهي بشدة على الحرف نكرة وقلقلة في غير موضع قلقلة.

ولكن كل واحد من السامعين كان يخشى أن يصرح بما أحس به بعد هذه الدعاية المسرحية التي كانت للمحاضرة فيتهم بعدم الفهم ولو كانت هذه المحاضرة كلمة ألقيت في حفلة شاي بمناسبة عارضة لكان للرجل بعض العذر؛ ولكنه موضوع أعده من أكثر من سبع سنين وقد خبر به صديقي سعيد الأفغاني سنة ١٩٤٧م وقال له: إنه يريد أن يحاضر به في دمشق.

ولا عجب أن يجيء هذا من طه حسين، ولكن العجب من أهل الشام يدعون الكفء القدير من أهل بلدهم ويجنّون بكل قادم عليهم فيرفعونه إلى حيث لا تحمله أجنحته، فيوماً ترج البلد ويطير العقل منها لأن طه حسين جاء يحدثها بما يعرفه كلٌ مدرس للأدب في الثانوي، وكل طالب للأدب في الجامعة.. ويوماً تقيم مهرجاناً لأبي ماضي، ويوماً تبتدع عيداً قومياً لإحياء ذكر هذا المأفون ابن سرجون؟!

فمتى يعقل الشاميون؟!).

هذا ما قاله الطنطاوي، وكثيرون قالوا في طه حسين ومحاضرته.. فمرحى لهذه الصراحة وعدم الغمغمة والمحاباة في الأدب العربي.

وكما هوجمت هذه المحاضرة وفندت وفند صاحبها من جهة فقد لاقت قبولاً ورواجاً وثناء عاطراً، وتطبيلاً وتزميراً من ناحية أخرى.

ولا بأس أن نلقي نظرة على هذه المحاضرة ونبرز للقراء أهم ما جاء فيها من عناصر أساسية ترتكز عليها المحاضرة.

بدأ الدكتور طه محاضرته بتحية للشعب السوري منه ومن الشعب المصري، ثم أشاد بتفاخر السوريين وأمجادهم وجهادهم المتواصل في سبيل الوطن العزيز، وتعرض لماضي دمشق المجيد وأنها بلاد العلم والعلماء والحضارة المتينة.

وبعدئذ شرع في موضوع المحاضرة وذكر أنه سيتحدث عن لون من الأدب العربي القديم، وهذا اللون قلّما تعرض له الباحثون، على أنه لون مستقل (ويريد بذلك التحدث عن أدب كل قطر على حدة) بل إن العرب تنظر إلى أدبها نظرة عامة وعلى أنه كل لا يتجزأ.

ثم يقول: دعوني أتحدث عن الشعر العربي القديم.. في سورية؛ ويبين الغرض من ذلك بأنه سيلتمس بعض الخصائص التي يتميز بها الشعر السوري في العصر الإسلامي الأول، وليس معنى هذا أن شعراء سورية لم تبرز لهم شخصيات عالية، وإنما لتأثر شعرهم ببعض الانطباعات السورية التي لا يخلو كل شاعر من تأثيرها.

وبدأ خصائص الشعر السوري بأنه مجافٍ للمجون والخلاعة، وأن الشعب السوري لا يروج لديه هذا النوع من الشعر وأنه يمتاز بهذا بين الأوطان العربية على الرغم من أن المجون حاول أن يستقر بسورية ولكنه لم يجد له مقاماً فيها.. وإنما شعر الغزل والمجون على اختلاف أنواعه كان يتمركز في الحجاز. أما بادية الحجاز ونجد فكان فيها الغزل ولكنه الغزل البدوي النقي ويستشهد على الغزل في الحجاز:

نلبث حولًا كاملاً كلَّه لا نلتقي إلا على منهجِ
في موسم الحج، وماذا منى وأهله إن هي لم تُخْجُجِ؟!

ويمضي في استشهاده:

ولـم أر لـيـلـى بـعـد مـوقـف سـاعـة ببطن منى ترمي حجار المحصب
ويبدي الحصا منها إذا قذفت به من البرد أطراف البنان المخضب
ألا إنــمــا غــادرت يــا أم مــالــك فتى أينما تذهب به الريح يذهب

ثم يعود فيقول بعد أن أورد رواية (الأغاني) من أن مجنون ليلى شخصية وهمية حاول بعض الأمراء الأمويين أن يتترس خلفها. . يعود فيكذب هذه القصة ويقول: إنهم حينما أرادوا الانطلاق والغزل فعلوا، فلا غرابة أن يخرج منهم (المجنون) ونحوه. .

ويستطرد قائلاً: كان خلفاء بني أمية يكرهون هذا الغزل يسمعون عنه في الحجاز حتى خرج يزيد بن عبد الملك الذي هام بحب جارية مغنية فاشتراها ولكنه حيل بينه وبينها حتى آل إليه الحكم فاشترى الجارية وأطلق العنان للغزل والمجون. . ثم خفت وطأة هذا الأمر نوعاً ما بعد تولي هشام الملك، ولكنه عاد كأشد ما يكون في عصر الوليد، ويستشهد بذلك بقول الوليد نفسه:

يــا أيــهــا الــســائــل عــن ديــنــنــا نــحــن عــلــى ديــن أبــي شــاكــر
نــشــربــهــا صــرفــاً ومــمــزوجــة بــالــســخــن أحــيــانــاً وبــالــفــاتــر

ثم يشير إلى انغماس الوليد في هذا النوع من المجون ونهايته المعروفة ويقول إن ذلك يجر إلى مشكلة من مشاكل الأدب عويصة.

وينتقل ـ بعدئذ ـ إلى العراق مشيراً إلى أنه موطن جد لا هزل، ففيه تصطرع الطوائف من شيعة وسنة وخوارج. إلخ، وأنه يعيب على الحجاز مجونه، وعلى سورية قلة أدبها.

ويذكر جريراً والفرزدق وشعرهما ولكن ذلك في عصر بني أمية فحسب، أما في العصر العباسي فقد فتح العراق الباب على مصراعيه

للغزل.. وذكر بشاراً ومطيعاً وما كان منهما ومن غيرهما في الإسراف في المجون والإلحاد في الدين وو... الخ حتى اختتموا بالشاعر الماجن الخليع أبي نواس.

ثم يتساءل: من أين ـ يا ترى ـ جاء الغزل إلى العراق، وهي البلاد المحافظة قبل؟ أتظنه جاءها من الحجاز مباشرة!؟ طبعاً لا.. وإنما انتقل إليها من الشام بعد تفرق أصحاب الوليد. ويدلل على ذلك بأن أبا نواس أخذ كثيراً من معانيه الخمرية من شاعر بني أمية الوليد بن يزيد.

ثم يعود إلى مأساة الوليد فيقول: «وقتل الوليد بن يزيد لأنه أراد أن يحمل بني أمية على ما لم يتعودوا عليه، وأراد أن يقر في الشام أشياء لم تستطع الشام أن تقبلها».

ويتكلم بعدئذ عن الشعر في الشام من حيث قوته وضعفه فيقول إنه قوي من ناحية؛ ضعيف من ناحية أخرى، ويقسم الشام، باعتبار الشعر، إلى منطقتين جنوبية وشمالية، ويذكر ندرة الشعر في الجنوبية وقوته وعظمته في الشمالية ومنها الأخطل والقطامي، ويمتاز شعر هذين بالوقار والتحفظ والمحافظة على التقاليد.

ثم يبرز من خصائص الشعر العربي في سورية الحرص على التأني وتجويد اللفظ ومقاومة الطبع. ويمتاز أيضاً بالعفة والرصانة.. ثم يقول: وعلى عكس ذلك كان شعراء العراق فقد كانوا يسفون أشد الإسفاف؛ ويمثل بالفرزدق ومعاضلته مع النحويين.

وأيضاً يمتاز الشعر الشامي بالعناية الفنية، استمع إلى هذا البيت:

تزجي أغنَّ كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

ويشرح ما في هذا البيت من جمال ويقول: إن بشاراً كان إمام أصحاب البديع في عصره؛ ولكن ليس علم البديع هو التجديد، إنما التجديد ما قام به أبو تمام من شعراء الشام مما أسخط عليه القدماء المتعصبين لبقاء الشعر على هيكله الأول وقالوا إنه نأى بالشعر عن عموده وإنه كان تجديداً وابتكاراً لو عاش صاحبه بيننا الآن لعد في حساب الشعراء الممتازين الغربيين؛ كان في شعره أشبه شيء بالفليسوف الذي لا يحب أن يرسل الكلام دون ما تحقيق إلى صور لم يألفها الشعر العربي ويمثل:

رقيقُ حواشِي الحلم لو أن حلمه بِكَفَّيْكَ ما ماريتَ في أنه بَرَدْ

وينفي عن بيت جرير أنه أمدح بيت ويثبت أن أوسع بيت آفاقاً قول أبي تمام:

كأن به شوقاً إلى كل جانب من الأرض أو ضغناً على كل جانب

يقول: لا أعرف بيتاً تتسع آفاقه وتبعد آماده ويجمع الأرض كلها في كلمات معدودة مثل هذا البيت.

ثم يحدثنا عن قصيدة أبي تمام المشهورة في فتح عمورية وتصويرها تصويراً نادراً كبيراً وهي أطلال قد حطمتها الجيوش وأحرقتها النيران وقبل ذلك وهي تحترق. وهذه الصياغة التي رأيناها في شعر الأخطل والقطامي هي التي طرقها أبو تمام فنال هذه الشهرة بحق في هذا الفن الجديد من الشعر والذي نسميه «الكلاسيك الجديد».

ويقول: إن الشعر السوري لم يقف عند هذا الحد؛ بل أضاف إلى الشعر العربي ثروة لم يضفها إليه شعراؤه ولم تستطع الآداب العربية الموروثة كلها أن تضفيه عليه، وهي التي ابتكرها أبو العلاء المعري، أبو

العلاء هو الشاعر العربي الذي لم تعرف له الأمة العربية نظيراً منذ قيل الشعر العربي، فهو الذي استطاع أن يضيف الفلسفة الإنسانية كلّها على اختلاف مصادرها من الهند واليونان والفرس كل ما عرفته الإنسانية من الفلسفة، استطاع أبو العلاء أن يصبَّها في سفره الفلسفي الرائع، وهو الذي كان يعبث باللغة كما كان الأطفال يعبثون بالرمل على ساحل البحر..

ثم يمضي في إضفاء الألقاب والمدائح على أبي العلاء بشكل كبير. ويختتم محاضرته بهذه الخلاصة، وهي أن سورية أول من أضاف إلى الشعر العربي تجديداً بوساطة الأخطل ثم بوساطة أبي تمام في ناحية أخرى؛ ثم بوساطة المعري في ناحية ثالثة.

ثم يقول: إذا لاحظنا أن سورية قد أعطتنا هذا كله إلى الشعر العربي استطعنا إذن أن نقول في غير مبالغة وفي غير إسراف وفي غير تكثر ولا غلو إن العالم العربي الإسلامي مدين لسورية بأجود ما عنده من الشعر، ويختتم ذلك بقوله: لا أقول هذا الكلام مصانعاً لسورية أو تمدحاً أمامكم بسورية.. وإنما هو الكلام الذي أُعلمه لتلاميذي في مصر.

مقابلة مع الدكتور طه حسين

كان اسبوع الدكتور طه حسين في سورية اسبوعاً حافلاً بالمقابلات والرسميات وغير الرسميات؛ مما جعل اوقاته اعز من الذهب؛ ما دام الوقت كله من ذهب. وقد انتهزت فرصة وجوده قريباً مني، وانا الذي فاتتني فرصة الاجتماع به في زيارته للمملكة والاستماع إلى احاديثه ومحاضراته هناك؛ لبعد الشقة بين مقر عملي وبين الأمكنة التي زارها.. فقد اقدمت على اقتطاع شيء من وقته الثمين، فزرته مع بعض الأصدقاء في فندق «سميراميس»، وكانت صالة الفندق تغص بالأدباء ورجال الصحافة والمصورين، وقد وجهت إلى سيادته الأسئلة التالية:

ـ نرى أن المجلات التي كانت تحتضن الأدب العربي كالرسالة والثقافة ونحوهما قد اختفت وراج مكانها المجلات الخليعة والصحف التي تشتغل بالعبث والمجون. . فهل يعتبر هذا هزيمة للأدب العربي؟

ـ لا شك أنه هزيمة للأدب العربي بالنسبة لمصر؛ ولكن ذلك لا يعني نضوب معين الأدب هناك، بل يرجع ـ في الغالب ـ لأسباب مالية أثقلت كاهل هذه المجلات وقد سببها نظام الضرائب هناك، ونرجو في المستقبل القريب أن تعود المياه إلى مجاريها وتعود هذه الصحف كأقوى ما تكون ويتراجع الأدب بعد هزيمته.

أما رواج الصحف الأخرى فكان ذلك لأنها اندفعت مع تيار الحياة وحاولت أن تتلقف رغبات الشعب وميوله وإغراء القراء بشتى الوسائل فكانت هي التي تتأثر بالمجتمع وتواكبه لا أنها هي التي توجهه وتؤثر

فيه.. وقد ساعدها ـ أيضاً ـ على الرواج والانتشار فتح صدرها للإعلانات والتفنن في نشرها والدعاية لها..

ـ في زيارتكم للمملكة العربية السعودية لا بد أنكم أخذتم فكرة عنها من الناحية الأدبية.. فهل تعتقدون أنها سائرة في طريق سوي سيصل بها إلى أدب عالٍ يعيد به التاريخ نفسه؟

ـ لا شك أنني مغتبط ومتفائل بما لمسته هناك من نهضة أدبية يرجى منها خير كثير؛ فلقد سمعت ما أثلج صدري وارتحت له تمام الارتياح. سمعت شعراً حيًّا قويًّا، إن طابعه الجميل الشيق يتمثل في شعر الأستاذ القرشي وغيره من الشعراء المجيدين الذين أبدعوا في شعرهم وأمتعوا.. وسمعت أدباً حيًّا متحفزاً سوف يكون له أكبر الأثر في إنهاض الأدب العربي ورفع مستواه في القريب العاجل إن شاء الله.

ـ ما هي الأشياء التي تنصحون بها الأديب العربي في هذه الفترة العصيبة التي تجتازها الأمم العربية؟

ـ لا شيء غير الإخلاص والإخلاص وحده؛ فالإخلاص هو البلسم الشافي والطريق الوحيد لإنهاض الأمم ورفع مستواها في كافة الميادين ودرء ما تخشاه من كل المخاوف والأخطار.

وبعد ذلك ودعت سيادة الدكتور طه وانصرفت.

انصرفت وكلمة الإخلاص ترن في أذني ويرددها لساني ويتشبع بها ذهني. الإخلاص، هذا الطلسم العجيب الذي استعصى حله في محيطنا واستبهمت معالمه وبات مسلكاً خاوياً لا يلم به إلا المقامرون ولا يتجاوزه إلا المتهورون. فالإخلاص في الأدب وللأدب في محيطنا

أصبح ضرباً من الهوس وشعبة من الجنون.. وكلنا نخلص للأدب أول ما نمارس الأدب كسلم نصل به إلى قمة الوظيفة أو تكأة نجلب بها الشهرة إلى أنفسنا، وسرعان ما ننبذ الأدب نبذ النواة ونذكره كالحلم في فترات العمر..

الصحافة والأدب

الصحف في دمشق كثيرة بشكل يلفت النظر ويسترعي الانتباه ولكن أكثرها صحف هزيلة في مادتها وأسلوبها الصحفي، ولهذا فإن قراء هذه الصحف قليلون وأكثرها لا تتعدى أسوار دمشق، ولم أكد أرى في البلدان العربية أثراً لصحافة دمشق على كثرتها، مما يدل على ضعفها وقلة انتشارها، ومن هذه الصحف ـ في مجموعها ـ صحف مستقلة ومنها صحف حزبية وعلى كثرة عدد الأخيرة، فإن الفائدة التوجيهية منها قليلة نسبياً لخضوع أكثرها لمؤثرات خاصة.

لكنه يوجد في بعض الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية لمحات من التوجيهات الإسلامية والعربية، كجريدة (الأيام) و(العلم) ومجلة (المسلمون) و(التمدن الإسلامي) ولكن انتشارها قليل.

وصحف دمشق هي: الأيام؛ القبس؛ النصر، بردى، البناء، الفيحاء، ألف باء، المنار، الأخبار، دمشق المساء، النضال، العلم، الحضارة، الرأي العام، البعث، الناس، لسان الشعب، صوت العرب، الكفاح، الشورى، الصرخة، الشام، الجمهور.

والمجلات هي: الدنيا، الرقيب، المضحك؛ النقاد، الجامعة؛ الطليعة، التمدن الإسلامي، الصحة والتعليم؛ الإيمان؛ المختار؛ طبيبك، البيان؛ (لاسومان) (سيريين) فرنسيتان، عالم الطب؛ أخبار الأسبوع، رسالة الكيمياء، النور؛ الرأي؛ المهندسين؛ العمال، المسلمون؛ الشهاب؛ المعرض، مجلة المجمع العلمي العربي.

فأنت ترى هذه الكثرة الساحقة في الصحف والمجلات ومع ذلك لم يجر اسم واحدة منها على مسامعك فضلاً عن أنك تطلع عليها وتقرؤها إلا القليل منها، ولكن انتشار هذه الصحف في وسط دمشق على اختلاف طبقاته قد أتاح فرصة بطريقة الاستمرار للطبقات الفقيرة أو شبه العوام أن تستفيد منها حيث أصبحت الصحافة تمثل المدارس السيارة مما جعل هذه الطبقة تتوسع مداركها وتطلع على سير العالم الحديث في مضمار الحضارة؛ لأن أثمانها زهيدة؛ والوعي منتشر بين طبقات الأمة مما يجعلهم ينهمكون على قراءتها.

وأيضاً فهناك فائدة أخرى؛ وهي إتاحة الفرصة لعدد غير قليل من الشعب للعمل في هذه الصحف والاستفادة ماديًا منها. ويوجد في كثير من الصحف الدمشقية بعض التطرف وعدم التثبت مما تنشره؛ مما لا يليق بصحافة تمثل شعباً أبيًا كريماً.

إن الصحافة التي لا تتسم بالرزانة والتثبت مما تنشره والاستقلال الذاتي وعدم الخضوع للمؤثرات الخاصة والأغراض والأنانيات والنعرة الجنسية والطائفية، صحافة لا تليق بها الحياة ولا تستحق الوجود.

إن الأمة الإسلامية والعربية في دور نقاهة واستيقاظ، وبحاجة إلى صحافة ناصحة مخلصة تأخذ بيدها إلى المسالك المأمونة والطرق الصحيحة. . لا أن تنشر الإحن والبغضاء في صفوفهم، وتوجد الضغائن والمهاترات فيما بينهم فتنقلب فائدة الصحف حينئذ مضرة، ومعول هدم يزعزع بناءها.

وأعود فأكرر قولي بأن هذا الحكم لا ينطبق على مجموعة الصحف فيها، بل فيها صحف موفقة رشيدة، تسير على النهج الصحفي المقبول.

وصحافة دمشق مرتبطة بمديرية الدعاية والأنباء، وهذه تعمل في عدة حقول، أهمها تنظيم شؤون الصحافة والدعاية الكاملة لسورية وتنظيم الصلات والعلاقات بين الوزارات، والاتصال بوكالات الأنباء وإمداد الوزارات بكل شيء، وتزويد السفارات والقنصليات بالنشرات والأخبار. . الخ.

وتتألف هذه المديرية من عدة دوائر أهمها دائرة النشر ويتفرع عنها شعبة النشر، وشعبة المراقبة، وشعبة مراقبة الأشرطة (الأفلام) والكتب والمخطوطات.

وللصحف السورية في مخاطبة الحكومة ومعالجة المشاكل والتوجيه أسلوب خاص نلمس فيه الحرارة والانطلاق. وإليك مثالاً مما كتبته جريدة (الأيام) في عددها ٥٥٢١، قالت تحت عنوان دائمي في الصحيفة هو: (اسمعي يا حكومة!):

«صح النوم يا حكومة. . لقد أطل فصل الصيف ومضى الشتاء والربيع دون أن تحركي ساكناً أو تبدي أي اهتمام بشؤون المصايف ولا سيما الطرقات!

وكم من مرة كتبت الصحف ونبهت وصاحت ودعت إلى إصلاح الطرقات قبل حلول موسم الصيف، حتى إذا واجهه الناس من قريب وغريب ومواطن وغير مواطن لا يسلكون طرقات وشوارع مليئة بالحفر والأخاديد.

ولكن الحكومة تنام طيلة الشتاء والربيع. وتفيق في مطلع موسم الصيف. حتى إذا خرج المصطافون خابت آمالهم التي كانوا يعلقونها على المسؤولين في الحكومة».

وأخيراً تقول: (إنها لكلمة عابرة نريد أن تسمعها الحكومة. بدلاً من أن ينتفوا (تقصد المصطافين) فروتها ويسلقوها بألسن حداد).

وتحتل الأخبار السياسية المكان الأول في الصحف السورية بل ربما لا يشاركها إلا قليل من الأخبار الاجتماعية والاقتصادية، الخ.

❁ ❁ ❁

أما الأدب فلم يكن أحسن حالاً منه في البلدان العربية الأخرى فهو يكاد ينحصر في نفر يعدون على رؤوس الأصابع، لهم في الأدب شعره ونثره، جولات وانطلاقات، ولكنهم لم يقفوا أنفسهم على الأدب، وليس كل إنتاجهم في الأدب بالأدب.

أما الباقون فكغيرهم في البلدان العربية، يتخذون الأدب تكأة للاكتساب وسلماً للشهرة؛ فيملأون أعمدة الصحف بالبحوث والمقالات وينظمون الشعر في المناسبات وغير المناسبات، وينتقدون فلاناً ويثنون على فلان، ويثيرون جعجعة كبيرة ولكنها سحابة صيف عن قليل تنقشع، فسرعان ما يغمد أحدهم قلمه ويودع الأدب الوداع الأخير إذا نال الشهرة على أكتافه وتربع على كرسي الوظيفة على حسابه، فلم تعد تحس له نأمة أو تسمع له ركزاً. مما يدل على أن الأدب ليس طبيعة أصيلة فيه ولم يأته بادىء ليكون رسولاً للمجتمع وطبيباً نطاسياً يقف حياته عليه ويجاهد في سبيله، ويؤدي لأمته ما أداه أدباء العالم لأممهم، فقد كانوا يشدون في الأدب حتى فارقوا الحياة عباقرة أفذاذاً. فأولئك ينظرون إلى الأدب على أنه خدمة اجتماعية وجهاد ونضال في سبيل المبدأ والأمة والإنسانية؛ وما يدرّه عليهم أدبهم يأتي عرضاً وشيئاً ثانوياً. . أما نحن فننظر إلى الأدب على أنه وسيلة للأصفر الرنان، وحسبنا ذلك! وشتان ما بين هذا وذاك.

وإليك مثالاً واحداً كدليل على ما نقول: منذ عامين زار دمشق شخصية عربية إسلامية احتفلت بها البلاد وأقيمت لها المهرجانات الشعبية والنوادي الأدبية، وكان من طبع هذه الشخصية أن تعطف على الأدب وتثيب عليه. فانطلقت قرائح ودّعت الشعر منذ عشرات السنين وكتبت كلمات كان عهد أهلها بالكتابة قديماً، وانطلقت أقلام كان أهلها أشحّة بانطلاقها، فتألف من ذلك مجلد ضخم طبع وقرىء. ثم نضبت القرائح، وخفتت الأصوات وجفت الأقلام وطويت الصحف.

هذا هو الأدب عند كثير من الناس في دمشق وغير دمشق، وهذا هو الذي جعل عصرنا خلوّا من عباقرة الشعراء وأساطين الكتاب وجعلنا ـ على الرغم من انتشار الثقافة بيننا ـ ننكص إلى الوراء ونبعد عن الأدب الصحيح، وهذا هو الذي جعل مكان شوقي والبارودي وحافظ والرصافي وغيرهم وغيرهم يبقى خالياً. وهذا هو الذي جعل الأمم الغربية والشرقية تبزنا في هذه الناحية.. فلدى كل أمة منها الآن شعراء عمالقة وكتاب مبرزون تفخر بهم وتعتز، أما نحن فنرجع إلى الوراء ونكتفي بالتغني بأمجاد الآباء وسائر القدماء فنحن مجترّون وأولئك مجددون. ونحن نقول كان الآباء وهم يقولون ها نحن أولاء!.. وشتان بين مشرق ومغرب.

على أن دمشق لا تخلو من شعراء مبرزين وكتاب مجيدين، لهم قدم راسخة في الأدب، وقد ساهموا في بناء النهضة الأدبية في بلاد العرب مساهمة كبيرة، وأضافوا إلى المكتبة العربية إنتاجاً ناجحاً مشرفاً ولكنهم آثروا الانزواء؛ واستأثرت بهم الوظائف والأعمال فخرست تلك الأصوات المجلجلة والأقلام الجريئة الحرَّة التي كان لها في زمن

الانتداب الفرنسي والثورات العربية صدى في العالم العربي يلهب الشعور ويثير الحماسة، ويدفع بالأمة العربية إلى التحرر من نير الاستعمار والظلم والعدوان. ولا أدري ما الذي أخرسها وقعد بها في حين أن ما أثارها بالأمس وأذكى فيها نار الغيرة والأنفة لا تزال جذوره تتغلغل في أعماق الأمة العربية، بل لقد منيت الأمة العربية برزء لم تمنَ به منذ أن وجد عربيٌّ على ظهر الأرض، وأصيبت بنكبة يهون ألمها الحاضر عما سيسجله التاريخ عليها في الأزمان القادمة، مما يجعل الأجيال القادمة تغض طرفها وتطأطىء خجلاً مما اقترفه سلفها في بلدهم الشهيدة فلسطين؟!

إن في قضية فلسطين مادة خصبة وإبساساً للقريحة الشحيحة مما يجعلها تتأجج ناراً حامية تستنفر الزمن وتجرىء الجبان.

لقد كان شفيق جبري عميد كلية الآداب في الجامعة السورية من أوائل شعراء سورية، وله إنتاج قيم ومعروف في تاريخ سورية أيام الثورة وفي زمن الانتداب الفرنسي، فقد كانت قريحته تفيض في المناسبات الوطنية وغيرها بالكلمات والقصائد الرائعة، ولكنه قبع بعد ذلك وانزوى ولم تعد تسمع له ركزاً خاصة بعد استلامه الوظيفة. وكذلك كان الشاعر المجلي عمر أبو ريشة، فقد كان يلتهب حماسة وعاطفة جياشة بالوطنية والغيرة. . وعندما عين وزيراً مفوضاً في البرازيل انقطع إنتاجه ولم نعد نسمع له حديثاً. . ومثله سليم الزركلي لم نر له أي إنتاج في مدة الخمس سنوات الماضية ما عدا قصيدته في استقبال جلالة الملك سعود في سوريا.

ومن بين الشعراء القدامى المبدعين خليل مردم بك رئيس المجمع

العلمي، وخير الدين الزركلي، لهما شعر رقيق يرفعهما إلى أوج الشعراء العمالقة.. ولكنهما نهجا نهج أولئك، وأصبحت قريحتهما الشعرية معطلة.

أما نزار القباني فيمكن أن يقال إنه من أكثرهم إنتاجاً ولكن شعره من النوع المستهتر المترف. وإن يكن ثمة إنتاج شعري فهو إنتاج تجريبي يقوم به بعض تلامذة الكليات. إنه شعر غزل داعر رخيص ليست فيه الحرارة المطلوبة، ولا العاطفة المشبوبة؛ ولا الوجدان الحي. غير أني قد سمعت أثناء وجودي في سوريا بعض القطع الحية لأمثال الأستاذ النفاخ والأستاذ حسن البحيري، ويوجد آخرون من أمثال هذين مغمورون ومنطوون على أنفسهم.

أما الكتاب المعروفون فمن بينهم: خليل مردم والمغربي وعلي الطنطاوي ومنير العجلاني ومصطفى الشهابي والمرحوم محمد كرد علي وبهجة البيطار، وقد أصبحت الوظائف تحتضنهم وتتحكم في إنتاجهم وأفكارهم. وأستطيع أن أقول إن النهضة الأدبية تنحصر في بعض تكتلات وتجمعات من بعض شباب ناشىء لا يعطي فكرة صادقة عن الأدب السوري على حقيقته. وتتجه ناشئة سوريا الأدبية نحو القصة ومعالجتها، ولكن لا تزال هذه المعالجة بدائية ينقصها الشيء الكثير ممّا توصل إليه القصاصون المصريون واللبنانيون أمثال الحكيم وطه حسين والمازني وهيكل وجبران ونعيمة، وغيرهم من الأدباء المعروفين.

وهناك أديب عامل في مدينة الشهباء حلب هو الأستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث الأدبية ومدير المكتبة الحلبية، فهو يقوم بحمل لواء النهضة الأدبية في تلك المنطقة، ويمكن أن نعد مجلته هي

المجلة الأدبية الوحيدة التي تنعكس عليها الصورة الحية للحركة الأدبية في سوريا، وفي منطقة شمال سوريا على الأخص.

وحمادى القول إن الأدب في سوريا يمر بفترة انتقال بين أشياخه الذين رغبوا وهجروه، وبين شداته ورواده الذين لم يرتفعوا به بعد إلى مستوى الآداب الناضجة الحية. ولنا أمل كبير في هؤلاء الشباب المتحفزين الذين تغص بهم الجامعة السورية وسائر المعاهد.. أن يبلغ الأدب السوري بهم ذروة الإبداع والخلود.

الشؤون الاجتماعية في دمشق

تلتقي شعوب العالم الحية جميعها في نقطة واحدة هي بذل الوسع في تقوية مركزها الاجتماعي، وبذل قصارى جهودها في إيجاد مواطن صالح يشاركها العمل ويبعد عنها غائلة الفقر والمرض والجهل ويظهر مجتمعها امام السائحين والأجانب مظهر العزة والكرامة، ويدرأ عنه مظهر الذل والاستخذاء والتسول.. فإنك لتستطيع أن تحكم على حيوية الشعب ونضجه، أو خموله وتفاهته من مظهره الاجتماعي.. وسوريا الفتية لم تكن لتهمل هذه الناحية أو تتهاون في شأنها، فلقد ضربت فيها بسهم وافر وأسهمت إسهاماً كبيراً يشرفها ويرفع قدرها.

ففي دمشق وحدها أربع وسبعون جمعية من بينها جمعية النهضة الخيرية، وجمعية مكافحة السل، وجمعية إغاثة المرضى الفقراء بدمشق، وجمعية حماية الأحداث؛ وجمعية السمحاء لتعليم أولاد الفقراء.

ولنعطِ بعض الفكرة عن إحدى هذه الجمعيات ما قامت به من نشاط وما أدته من مجهود كبير. . ولتكن جمعية حماية الأحداث بدمشق.

تأسست هذه الجمعية بدمشق في عام ١٩٥٠م وقام على تأسيسها فريق من المهتمين بقضايا الأحداث والمختصين بشؤونهم، وجرى انتخاب أول مجلس إداري لها بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٠م، ويبلغ عدد المنتسبين إليها ٢١٦ عضواً يمثلون جميع طبقات الأمة.

وغاية هذه الجمعية:

١ ـ حماية الأحداث من التشرد والإجرام.

٢ ـ توفير الوسائل لمعالجة شذوذهم العقلي والنفسي.

٣ ـ العمل على رفع مستواهم الأخلاقي والاجتماعي.

٤ ـ السعي لتوجيههم توجيهاً صحيحاً يضمن وقايتهم من التشرد والإجرام.

والوسائل التي انتهجتها لتحقيق غاياتها هي:

١ ـ تأسيس مكاتب الخدمة الاجتماعية لدى محاكم الأحداث.

٢ ـ إنشاء مراكز ملاحظة للأحداث المجرمين.

٣ ـ إعداد مساعدات وزائرات اجتماعيات.

٤ ـ تقديم المعونة لملاجىء الأحداث المتشردين.

٥ ـ إصدار منشورات عن أحوال الأحداث الشواذ.

٦ ـ مساعدة الأسرة على حسن تعهد الأحداث ومعالجة شذوذهم.

٧ ـ التعاون مع الدوائر المختصة في كل ما من شأنه حماية الأحداث.

أما إدارة الجمعية فيشرف عليها مجلس مؤلف من ١٥ عضواً؛ وينتخب هذا المجلس من بين أعضائه لجنة تنفيذية قوامها خمسة أعضاء، ويرأس هذا المجلس وزير العدل. وتنتخب الهيئة العامة للجمعية أعضاء المجلس الإداري لمدة ثلاث سنوات. ويتألف المجلس الإداري الحالي من أعضاء مختصين في شؤون الأحداث ومهتمين بحمايتهم. ويبلغ أعضاء هذه الجمعية العاملون خمسة عشر عضواً.

وقد حققت هذه الجمعية ما يلي:

١ ـ أسست مكتباً للخدمة الاجتماعية لدى محكمة الأحداث بدمشق.

٢ ـ أنشأت مركزاً لملاحظة الأحداث المجرمين.

٣ ـ أحدثت بالاشتراك مع جمعية المبرة النسائية مركزاً لملاحظة البنات.

٤ ـ أنشأت فروعاً لها في بعض المحافظات.

٥ ـ أثمرت مساعيها لدى الدوائر المختصة لإنشاء معهد لإصلاح الأحداث بدمشق وإحداث محاكم خاصة بالأحداث يقوم عليها قضاة أخصائيون ووضع نظام جديد للأحداث الجانحين.

٦ ـ ندبت أحد أعضاء مجلسها الإداري لتمثيلها في لجنة الإشراف على معهد إصلاح الأحداث المؤلفة من مندوب عن كل من وزارة العدل ووزارة المعارف ومديرية الشؤون الاجتماعية.

وما تسعى الجمعية إلى تحقيقه في المستقبل هو كما يلي:

١ ـ القيام بحملة منظمة للقضاء على تسول الأحداث.

٢ ـ إحداث مؤسسة خاصة لرعاية الأحداث المتسولين والمشردين.

٣ ـ اتخاذ جميع التدابير المانعة والقامعة لتشرد الأحداث.

٤ ـ السعي لدى الدوائر المختصة لإنشاء معهد لإصلاح الأحداث في حلب.

٥ ـ إصدار مجلة تبحث في جميع الشؤون المتعلقة بالأحداث الشواذ.

٦ ـ إنشاء مدرسة لإعداد المساعدات والزائرات الاجتماعيات.

ولهذه الجمعية نظام مطبوع يحتوي على ستة فصول في سبع وثلاثين مادة.

وتقوم مديرية الشؤون الاجتماعية في سوريا بنشاط كبير ومساعدة لهذه الجمعيات وتوجيه لها.

ونحن نأسف أشد الأسف لخلو بلادنا من المؤسسات الشعبية والمشاريع الخيرية التي لا تكاد تخلو منها بلاد تشم للحضارة أدنى رائحة؛ وهذا أمر يدعو إلى العجب والاستنكار مما يجعل الكثيرين يفكرون في هذه الظاهرة العجيبة التي إن قدر أنها تقع من شعب ما فلا يصح بحال أن توجد في الشعب السعودي الذي تربط بين أفراده وشائج الدين واللغة والقربى.. والذي دستوره الإسلام، دين السماحة والرحمة والإخاء والمودة والإيثار، والذي انحدر من سلالة أقوام شهدت لهم الأمم قاطبة بالكرم الذي بلغوا فيه حدًّا ملأ الأسفار وخلده التاريخ.

فبماذا نعلل هذه الظاهرة في عصرنا الحاضر يا ترى؟ أستطيع أن أعلل بشتى التعليلات ولا أستطيع أن أتهم هذا الشعب في كرمه وسماحته، فإن هذه جبلة متأصلة فيه تأصل اللغة التي ينطق بها والدم الذي يسري في شرايينه..

والذي هدتني إليه تجربتي ووصلت إليه بعد دراسة واستقراء دفعني إليها اهتمامي بهذه الناحية وتفكيري فيها.. هو أن الذنب ليس ذنب الأثرياء والممولين.. ولكن الذنب ذنب رجال الفكر وهداة الأمة من علماء وأدباء ووعاظ ومرشدين يستطيعون أن يزيحوا الدرن عن خبايا النفوس وأن يصقلوا جوهرها الصدىء. ويوجهوها الوجهة الصالحة السليمة حين يتعهدونها تعهد الغراس بالماء والمرآة بالصقل... فإن ما يتصف به هذا الشعب كله من قابلية واستعداد طبيعيين، يجعلنا نتفاءل ونؤمن بمستقبل جدّ مشرق يجعل شعبنا في الطليعة من بين الشعوب التي

تؤمن بالواجبات الاجتماعية، وتقدر المبادىء السامية والإيثار والتضحية متى وقفت الصحافة والأدب والدعاة المخلصون موقفهم الطبيعي لهم، وقالوا للأمة في إصرار وحماس: هنا الطريق، بعد أن يمهدوا السبل ويدرسوا أحوال الأمة على ضوء تجاربهم وعلمهم وبعد أن يضعوا الخطوط الأولى للمشروعات على أسس سليمة وقواعد مقبولة مقدمين الأهم على المهم.

وإذا كانوا لا يزالون مصرين على صمتهم وانزوائهم، مؤثرين الركود والدعة مخافة أن يكبدوا أنفسهم تعباً، معلقين رسالة الأدب والعلم جانباً، مستثقلين إذكاء شعور كامن في الشعب.. إذا كانوا كذلك فلا أقل من إن يستغلوا الشعور الموجود وأن يقطفوا الثمرة الناضجة، فعليهم وحدهم ـ والله ـ تقع التبعة ومن جانبهم فقدت البلاد هذه المشروعات الخيرية النافعة... فصاحب المال دأبه التفكير في شؤون تجارته والسعي لتنميتها وإصلاحها، وليس من شأنه أن يفكر في المؤسسة الفلانية كيف تقوم ومتى وكم تتطلب من مال.. وإذا فكر في عمل خيري فتفكيره فردي، وعمله فردي، ونفعه قليل ضئيل.. والذي يصب اللوم على الأثرياء وحدهم ويحملهم المسؤولية مرتكبٌ شططاً. أيريد من هؤلاء أن يحتلوا مركز الأديب والداعية لتكوين جمعية؛ والدعاء إلى مؤسسة؟..

وقد يكون ممن استولى عليهم شعور العطف ودًّ من قرارة نفسه لو أسهم بماله في كل مشروع خيري.. ولكن مركزه وظروفه وطبيعة حياته لا تمكنه من هذا، بل هو ينتظر صوت الصحافة والأدب والدعاة الذين يحملون هذه الأمانة ويطالبهم الواجب بأدائها.

ولست أقول هذا رجماً بالغيب، وإنما الواقع يصدق ذلك. فمن هو الذي تقدم يوماً ما بمشروع خيري وأوصله إلى أسماع الشعب فخذل وعاد بخفَّي حنين؟ لا أعلم؛ بل أمامي الآن شاهدان قويان يبرهنان على صدق ما أذهب إليه، وكلا هذين الشاهدين قريب منا جدًّا.

أحدهما: ما فكر فيه نخبة من رجالات هذه البلاد المقيمين في الجمهورية السورية من إقامة ملجأ لليتيم السعودي هناك والقيام بكفالته وتربيته وتعليمه كما هو متبع في سائر الملاجىء هناك. وقد صدقوا العزم وأخرجوا الفكرة إلى حيز الوجود بعد أن درسوها الدراسة الكافية وأرسوا قواعدها على أساس علمي صحيح يضمن لها البقاء والاستمرار، ثم جاء مندوبهم إلى هذه البلاد يحمل المشروع حبراً على ورق؛ ولكنه يحمل بين حروفه ما دفع كثيراً من أبناء هذه البلاد أن يستقبلوه بصدر رحب ويحلّ من نفوسهم المكان الأعلى فبذلوا في سبيله عشرات الألوف حتى رجع المندوب يحمل ما يكفل قيام المشروع من التبرعات الحاضرة؛ وما يكفل حياته واستمراره من المرتبات الشهرية والسنوية.

ولقد برزت هذه الروح في كلمة قالها أحد المتبرعين الكرماء، بعد أن نفح المشروع بعشرة آلاف ليرة سورية، قال: متى أتيتني بمشروع مثل هذا في قلب المملكة فأنا مستعد أن أتبرع له بمائة ألف. فليصبر، ولنصبر معه؛ حتى يستيقظ من يحتضن مثل هذا العمل الجليل ويضع الأمة أمام الأمر الواقع.. فمتى؟

والشاهد الآخر: هو ما تقدمت به أسرة تحرير جريدة البلاد السعودية بمشاركة بعض الأدباء المخلصين من الدعوة إلى تأسيس صندوق للبر في بلد الله الحرام، يواسي منه المنكوبين ويعطف على

اليتامى والأرامل والمقعدين، ويعين الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، يعينهم على صبرهم وتسترهم، وعدم إراقة ماء وجوههم للناس، وغير ذلك من سبل الخير التي تبذل فيها الأمم أموالها وتضحياتها.

وما كاد هذا المشروع يبرز إلى حيز الوجود حتى انهالت التبرعات عليه، وتسابق الناس إلى دعمه، كل على قدر استطاعته، حتى نهض وأخذ يؤدي وظيفته على أكمل وجه وأحسنه؛ وكسب متبنوه ـ إن شاء الله ـ خير الدنيا بإسداء هذه المأثرة الخالدة إلى وطنهم العزيز والتي سوف يخلدها لهم التاريخ.. وخير الآخرة لقاء ما بذلوه لوجهه تعالى في عباده المستضعفين.

وبالأمس قامت نخبة من شبابنا الحي بالدعوة إلى تأسيس صندوق للبر في الرياض مماثل لصندوق البر بمكة، فصادف قبولاً واستحساناً من الحكومة والشعب، إلا أنه لا يزال في دور بدائي لا نستطيع الحكم عليه ما لم يجند هؤلاء الشباب الذين تبنوه أنفسهم للنهوض به ويتلقفه الأدباء والصحافة بالدعاية والتشويق، فمتى؟

وإذن فلماذا لا نصحح أفكارنا ونقوم بواجبنا قبل أن نري غيرنا عيبه، ولماذا لا نقتدي بغيرنا من رجال الأمم الذين لم يألوا جهداً في هذه النواحي؟

إن الحياة كفاح وتضحية، وإن رسل المجتمع من أدباء وعلماء ومرشدين، لا يقل ما يبذلونه من جهود وأفكار في إحياء أممهم وإنهاضها عما يبذله الأثرياء من أموال وخدمات إن لم تفقه. ولا بد في حياة كل أمة تنشد المجد وتطلب الرقيّ من تضافر جهود هؤلاء وهؤلاء؛ ولا بد

أن يعرف كل إنسان واجبه نحو أمته أيًا كانت أحواله وظروفه بحيث يعمل وهو معتقد أن عمله في صالح أمته ووطنه، مستحضراً في كل لحظة ما ينبغي أن تكون عليه من رفعة واحترام، محاسباً نفسه؛ هل أدى في يومه أو أمسه خدمة خاصة أو عامة لوطنه؟ إنه متى ساد هذا الشعور في الأمة واستحكم بين أفرادها بلغت ما تصبو إليه من نجاح وفلاح.

على أن هناك طبقة من الناس أوتيت بسطة في المال، ولها إدراك وفهم وعلم وأدب لا تحتاج معه إلى دعوة أديب ولا إلى نداء صحافة ومع ذلك فهي مخلدة إلى الأرض لا تريد أن تعمل لأمتها شيئاً وليست لديها الضمائر الحرة والإحساسات الكريمة التي تحرك جزءاً من ألوف الأجزاء من أموالها في سبيل النفع العام والحدب على الأمة، بل لو استطاعت أن تبتزَّ كلَّ ما في أيدي شعبها لنفسها لفعلت، فهي غارقة في خيلائها، ممعنة في ترفها، محتقرة لأمتها، ناسية لواجبها، كأن الله خلقها من عنصر لم يخلق منه هذا البشر، وكأنما أوتيت هذه الأموال على علم عندها. تتنافس في ركوب أفخر تصميم (موديل) أنتجته مصانع السيارات، وتتسابق في تشييد (الفلل) والعمارات. ويا ليت ذلك في شعبها لتحسن شوارعه وتظهره بالمظهر اللائق الجميل، ولكنك تجدها في حي أبي رمانة والمهاجرين، ومصايف لبنان، وفي جاردن ستي والزمالك والدقي ومصر الجديدة وما إليها لتحسن بها تلك الأحياء إلى حسنها وتبرهن على عدم ثقتها ببلادها وأمتها وتدفع إلى حكومات تلك البلدان عشرين في المئة من أجورها.

فإلى متى وهذه خطتنا؛ وهل يليق بنا أن نطالب الحكومة بملاحقة هؤلاء إذا لم يكن لهم رادع من أنفسهم وخلاق يؤدبهم!

فأين هؤلاء من أثرياء الأمم الأخرى الذين يدفعون إلى حكوماتهم تسعين في المائة من دخلهم راضين مطمئنين، ومع ذلك فلهم النصيب الأوفى في الجمعيات الخيرية وبناء المدارس والتعليم، والإسهام في كل ما من شأنه تقوية البلاد ورفع شأنها. فرق والله بين هؤلاء وبين من يخرج أموال البلاد ليزين بها البلدان الأجنبية ويدفع الضرائب لحكوماتها وهو متبجح مسرور لا يندى له جبين ولا تتحرك له عاطفة، خيبه الله وأبعده![1].

---

(١) كان هذا قبل حوالي خمسة وثلاثين عاماً أما الآن فقد تغير الوضع وأثمرت هذه الدعوة وغيرها من الدعوات إلى الخير وإلى السبيل السوي وأصبح في البلاد الحمد لله فئات المؤسسات الخيرية والجمعيات والأنشطة المتعددة وأصبحنا نضاهي كثيراً من الأمم في هذا المجال فلله الحمد والمنة.

الميتم السعودي

لم يكن غريباً أن توجد في دمشق جالية كبيرة من الجزيرة العربية قست عليها ظروفها وأقلقها تأرجحها واضطرابها أيام كانت مصطرعاً للحكام والقبائل، وميداناً للنهب والسلب، والجوع والفقر والمرض، فوجدوا في دمشق بعضاً مما يخفف آلامهم ويضمن لهم قوتهم، فبقوا في بلاد الغربة مدة حياتهم، محافظين على جنسيتهم، ومتمسكين بوطنهم حتى جاءهم أجلهم وخلفوا أطفالاً لا يملكون شيئاً من متاع الدنيا.

وإذا كانت الأمم تعنى ببني جلدتها وتحدب على جنسيتها، فلا غرو أن تكون الحكومة السورية والشعب السوري كذلك، وأن يظل هؤلاء البائسون يتسكعون ويستدرون العطف ويستجدون من أيدي الناس؛ ويفتك بهم الجوع والمرض فتكاً ذريعاً، فكانوا قذاة في عيون بعض رجال السفارة السعودية هناك وبعض الموسرين والمتسببين؛ فقد أقلقهم هذا المنظر البشع، وأقضَّت مضاجعهم هذه الحالة المزرية، وخجلوا من وسطهم الحي المتيقظ الذي يحتقر كل أمة لا تقدر الواجب ولا تعطف على بني جلدتها. . فسرى بينهم هذا الشعور وصمموا العزم على العمل، وبفضل العزيمة الصادقة والإخلاص والإيمان بالمبدأ، لم تمض فترة وجيزة إلا وقد أصبح المشروع حقيقة، وقام الميتم السعودي في دمشق يضم بين جدرانه ما يقرب من خمسين طفلاً بين ذكور وإناث، وإذا به يحتل داراً فخمة مزودة بالهواء والنور وإذا بغرفة منضودة بالأسرة والفرش، وإذا بالطفل أمام حياة جديدة لا عهد له بها؛ يقدم له ملبسه

ومأكله، ويعنى بنظافته وتربيته، وينهل من موارد العلم والثقافة من لدن أساتذة أكفاء.

ولقد زرت الميتم عدة مرات وتفقدت فصول الدراسة، وألقيت أسئلة على الطلاب، واستمعت إلى تقرير الأساتذة ومناقشتهم، فسررت بكل ما رأيت وكل ما سمعت، وامتلأت غبطة بمستقبل هؤلاء الأطفال حينما يخرجون يحملون صنوف الثقافة والعلم، ويتصفون بالتربية الممتازة والشعور النبيل، ليسهموا في بناء مجد أمتهم ووطنهم، ولقد زاد سروري حينما سمعت طفلة لا تتجاوز السادسة من عمرها تنطق الإنجليزية بلثغتها المليحة البريئة بدون تردد أو تلكؤ. وأبصرت هؤلاء الأطفال يغدون ويروحون على الدراسة في خفة ومرح ويزاولون رياضتهم البدنية في نشاط ونظام، وتبدو على وجوههم وملامحهم الصحة الجيدة والفتوة بعد أن كانوا هزالى ومرضى وقذرين، ولقد التقط لبعضهم عدة صور عند دخولهم الميتم أطلعني مدير الميتم عليها، كما وأن آثار عدة عاهات كانت تفتك بأجسامهم فاقشعرَّ جلدي لهذه المناظر البشعة وتلك الحفر والأخاديد في رؤوسهم وسوقهم من آثار السعفة والزهري والأمراض الخطيرة.

وصاحب الفكرة الأولى لهذا الميتم والذي أوقف نفسه في سبيله حتى أصبح حقيقة واقعية وإلى يومنا هذا وهو اليد المحركة لجهازه هو الأستاذ فهد المارك، هذا الرجل الذي لم يضنَّ بجهوده ولا بجاهه ولا بأية وسيلة يستطيعها في سبيل تكوين هذا الميتم. ولم يكتف بإنشائه وتمويله بما يضمن سيره فحسب، بل دأب على أن يكون له مصدر ثابت ووقف يدرُّ عليه؛ فاستدرَّ عطف المحسنين الكبار حتى تجمع لديه مبلغ

كبير ينوف على مئة ألف ريال سعودي اشترى بها بيتين كبيرين في مدينة جدة يؤجران سنوياً بمبلغ كبير؛ وقد أصبحتا ملكاً للميتم ومصدراً ثابتاً يدرُّ عليه.

ولحضرة الشيخ عبد العزيز بن زيد سفيرنا في سوريا اليد الطولى في دعم هذا المشروع وتكوينه بجاهه وماله وتفكيره وتدبيره، فهو الرأس المفكر والساعد القوي في قيام هذا المشروع. ولا أنسى ما لمديره الشاب الأديب والمربي القدير محمد أديب غالب من موقف مشرِّف في إدارة هذا الميتم وبذل الوسع في جعله مؤسسة مثالية تثلج صدور مؤسسيه وتبرهن على أن هذا المشروع جدير بكل رعاية واحترام، وأن هذه الأموال التي أنفقت في سبيله صادفت مصرفها الضروري ومكانتها اللائقة. وكما وجدت هذا المدير الحكيم يراعي جانب التربية والتعليم ويسوسها بحكمة وبصيرة.. كذلك وجدته ينظم ميزانية الميتم تنظيماً حكيماً في أمانة وإخلاص وتوسط، يضمن للأطفال راحتهم واطمئنانهم ولميزانية الميتم استقامتها وعدم الإجحاف بها.

أما الذين جادت أريحياتهم وتبرعوا للمشروع فهم كما يلي:

١ جلالة الملك المعظم	٥٠٠٠٠ ليرة سنوياً
٢ سمو الأمير متعب بن عبد العزيز	١٠٠٠٠
٣ سمو الأمير نايف بن عبد العزيز	١٠٠٠٠
٤ سمو الأمير فهد السالم الصباح	١٠٠٠٠ سنوياً
٥ سمو الأمير فهد بن سعد	٧٠٠٠
٦ سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز	٥٠٠٠
٧ سمو الأمير فهد بن عبد العزيز	٣٠٠٠
٨ الأمير عبد العزيز بن أحمد السديري	١٠٠٠

٩ الأمير عبد الرحمن بن أحمد السديري	١٠٠٠
١٠ الشيخ عبدالله السليمان	٢٠٠٠٠ سنوياً
١١ الشيخ محدم سرور الصبان	١٠٠٠٠ سنوياً
١٢ الشيخ عبد العزيز العبدالله السليمان	٥٠٠٠ سنوياً
١٣ الشيخ عبد العزيز بن زيد	٣٠٠٠
١٤ الشيخ عبد العزيز القحيمي	١٠٠٠
١٥ الأستاذ عبدالله بن حسن بن عمران	١٠٠٠
١٦ الشيخ محمد باحارث	١٠٠٠
١٧ الشيخ محدم خليل عناني	١٠٠٠
١٨ سامر وعمر ابنا فؤاد حمزة	١٠٠٠
١٩ عبد المحسن الزيد	٥٠٠ و٥٠ شهرياً
٢٠ فهد المارك	٥٠٠
٢١ عبد الكريم الزامل	٣٠٠
٢٢ عبدالله بنموينع	١٥٠
٢٣ علي الحمراني	٥٠٠
٢٤ الشيخ إبراهيم الشوري	١٠ جنيه
٢٥ الشيخ محمد بن عبيكان	٥٠ جنيه
٢٦ عبد العزيز بن عبد المحسن آل الشيخ	٢٠ ليرة
٢٧ السيد حسن الشربتلي	١٠٠٠٠٠ ليرة
٢٨ عبدالله الشربتلي	٥٠٠٠٠
٢٩ سالم بن محفوظ	٣٠٠٠٠
٣٠ محدم أبو بكر باخشب	١٠٠٠٠
٣١ الحاج عبدالله علي رضا وشركاه	١٠٠٠٠
٣٢ محمد بن لادن	١٠٠٠٠
٣٣ إبراهيم شاكر	٥٠٠٠

٣٤ عبد اللطيف الجزار	٥٠٠٠
٣٥ سليمان بالغنيم	٣٠٠٠
٣٦ عبد الرحمن السبيعي	٣٠٠٠
٣٧ عبد العزيز الراشد	١٠٠٠ و٥٠ شهرياً
٣٨ محدم العريفي	١٠٠٠ و٥٠ شهرياً
٣٩ صالح بن صالح	١٠٠٠
٤٠ محدم الزين	١٠٠٠
٤١ سليمان العبدالله الغنيم	١٠٠٠
٤٢ إبراهيم بن خميس	١٠٠٠
٤٣ عبدالله العلي البسام	١٠٠٠
٤٤ الشركة السعودية للتجارة والصناعة بجدة	٥٠٠
٤٥ شركة التبريد والتجارة بجدة	٥٠٠

وكل هؤلاء من شخصيات المملكة البارزة التي تسهم في كل مشروع، وتود من قرارة نفسها لو قامت مشاريع ومشاريع في بلادها. فعسى أن يقتدي بهم غيرهم، وأن يخرج كثير من الناس من عزلتهم وينزلوا من بروجهم ويشاركوا شعبهم آماله وآلامه؛ وما ذلك على الله بعزيز.

نظرة إجمالية عن:

موقع سوريا ـ اقتصادياتها ـ التصنيع ـ الزراعة عين الفيجة ـ معرض دمشق ـ الكهرباء ـ المواصلات

❖ موقع سوريا:

لا يماري أحد في أن الموقع الذي تحتله سوريا ـ بالنسبة للدول العربية ـ موقع ممتاز يؤهلها لأن تتزعم اقتصاديات هذه الدول وتكون نقطة الارتكاز، فهي ملتقى الطرق البرية والبحرية والجوية لا سيما بعد تسيير الخط الحجازي وفتح باب الجزيرة العربية على مصراعيه وتحقيق آمال العروبة وأحلامها التي تداعب أفكارها في جمع شمل هذه الدول أو بعضها وارتباطها بأحلاف اقتصادية وعسكرية واجتماعية، سوف يصبح فيها لسوريا نصيب الأسد بما أوتيت من ثروة زراعية وشعب عامل سوف يجد في هذا الميدان الرحب أمامه آفاقاً جديدة وميادين فسيحة يكر فيها ويفر ويقلب بلاده جنة فيحاء.

فإذا وفق القائمون على شؤون هذه البلاد واهتبلوا الفرص وأخلصوا العزم فسوف لا تلبث سوريا حتى تصبح من أغنى وأرقى هذه الدول.

❖ المال والاقتصاد:

يعتمد الاقتصاد السوري على ثلاث دعائم هي: الزراعة والصناعة والتجارة. فالزراعة هي أهم الموارد، إذ تبلغ حصتها من الدخل القومي

٥٥٠ خمسمائة وخمسين مليون ليرة؛ أكثر من نصف الدخل القومي، ويشتغل فيها أكثر من مليون نسمة، وهو عدد يربو على عدد المشتغلين بسائر المهن والصناعات.

ويأتي بعد الزراعة الصناعة، إذ يقدر ناتجها بحوالي ١٢٥ مائة وخمسة وعشرين مليون ليرة، ويقدر عدد من يمتهن الصناعة بمئتي ألف شخص، وهي تعتمد على موارد أولية محلية، وإنتاج الصناعات الرئيسية مثل الأسمنت والغزل والزجاج.

والدعامة الثالثة هي التجارة، إذ يقدر الدخل الناتج منها بحوالي ٢٠٠ مائتي مليون ليرة، ويشتغل بها ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف نسمة، وللنقل والمواصلات مساهمة فعالة في دعم الدخل القومي، إذ يقدر ما ينتج عن ذلك بـ ١٠٠ مليون ليرة. أما العقارات والإنشاءات فتساهم بحوالي ١٠٠ مليون ليرة.

أما دخل الدولة فيعتمد على الضرائب غير المباشرة، وتتقاضى الحكومة من الضرائب المباشرة حوالي ١٥٪ من إيرادات الدولة عامة، أما النفقات فأكبر مصرف فيها هو الدفاع والأمن الداخلي، إذ يستهلكان ما يقرب من ٥٠٪ من مجموع النفقات. ويأتي بعد ذلك التعليم إذ يخصص له ما يقرب من ٢٠٪.

❖ التصنيع:

لقد استطاعت سوريا أن تثبت وجودها في مضمار التصنيع الدولي وأن تشقَّ طريقها في هذا الميدان، فأصبحت بلداً صناعية لها قيمتها ومكانتها. والصناعة في سوريا لها صلة وثيقة بالزراعة، وهي وليدة

النجاح الزراعي. فالغزل والنسيج يعتمدان على القطن الذي هو أحد النتاجات الزراعية. والزيوت النباتية والصابون يعتمدان على الزيتون والبذور الزيتية، إلى غير ذلك من الصناعات التي تعتمد على المحصول الزراعي كالسكر ونحوه.

ويأتي في مقدمة الصناعة السورية الغزل والنسيج؛ فقد اشتهرت به سوريا منذ أمد بعيد، وعرفت بحريرها الموشى والقصب وبدمقسها المنسوب إلى دمشق ولكن حرف قليلاً فصار (دمسك) بدلاً من دمشق.

وقد كانت هذه الصناعة بدائية، ولكن لتكاثر الطلب عليها ووعي الشعب وإدراكه تشجيع صناعة بلده أصبحت صناعة قومية لها ميزتها ومكانتها، وقد استوردت لها أحدث الآلات الفنية والأنوال الميكانيكية، وأصبحت هذه الصناعة في أيدي عدة شركات وطنية ذات رؤوس أموال كبيرة. ويشتغل في هذه الصناعة عدد يقرب من خمسة وخمسين ألف عامل ينتجون سنوياً ما يقرب من ستة وعشرين ألف طن من خيوط الغزل والنسيج القطني والحريري. وكان قسم كبير من الأقطان في الزمن الغابر يستورد من الخارج؛ أما اليوم فجميع صناعة الغزل والنسيج تعتمد على القطن السوري وحده، وتستهلك البلاد قسماً كبيراً من هذا النسيج، أما الباقي فيصدر إلى المملكة السعودية والعراق والأردن.

وقد صدرت سوريا في عام ١٩٥١م ما قيمته ١٩ تسعة عشر مليوناً من الليرات.

ويأتي بعد النسيج القطني النسيج الصوفي، وهو أقل رواجاً رغم أن سوريا غنية بالأصواف وتصدر كميات كبيرة من الصوف الخام بلغت قيمتها في سنة واحدة تسعة وثلاثين مليوناً من الليرات.

ولصناعة الجوارب والقمصان بسوريا أهمية كبيرة قد تكفي حاجة البلاد، ففي سوريا ٦٩ معملاً للجوارب تنتج سنوياً ما يزيد على خمسة عشر مليون زوج من الجوارب الرجالية والنسائية؛ كما تصنع بها جوارب النايلون.

أما الأسمنت فيوجد في دمشق مصنع له ضخم أنشىء عام ١٩٣٠م ولا يزال يتطور حتى أصبح ينتج شهرياً ما يزيد على أحد عشر ألف طن من الأسمنت وبه ثلاثة أفران كبيرة، كما أن في مدينة حلب مصنعاً آخر للأسمنت، وبتضافر هذين المصنعين أصبحت البلاد غنية بإنتاجها المحلي، إذ ينتج هذان المصنعان الآن ٢٠٠ ألف طن سنوياً، ويبلغ عدد العمال الذين يشتغلون فيهما حوالي ٦٥٠ عاملاً، ورأس مال المصنعين يبلغ ١٥ مليوناً من الليرات السورية.

ويوجد بسوريا مصنع للسكر أنشىء عام ١٩٤٦م برأس مال قدره ١٢ مليون ليرة سورية، يبلغ إنتاجه ٢٥٠٠ طن من سكر الشوندر و٢٠,٠٠٠ طن من السكر المكرر و١٠٠٠ طن من الكحول، وعدد العمال الذين يعملون فيه ٨٠٠ عامل.

أما صناعة الجلود والدباغة فيبلغ إنتاج المدابغ السورية الفنية ٢٧٠٠ طن من مادة النعل و٢,٦٤٠,٠٠٠ قدم من الجلود المختلفة، ويبلغ عدد العمال الذين يشتغلون بهذه الصناعة ٢٧٠٠ عامل، وهذه صناعة لها قيمتها ومكانتها الآن في سوريا ولها مستقبل جد خطير.

ولصناعة الصابون دور كبير في الصناعة السورية ولها شهرتها في الشرق، بفضل ما في البلاد من زيت الزيتون المتوفر في البلاد بكثرة؛ والذي تعتمد عليه صناعة الصابون. فسوريا تنتج كميات كبيرة من أجود

أنواع الصابون. فقد بلغت صادرات سوريا من قوالب الصابون العادي ١٥٤٠ طناً قيمتها ثلاثة ملايين من الليرات السورية. وتبلغ مصانع الصابون تسعة وخمسين مصنعاً عدد عمالها ٦٠٠ عامل، ورأس مال هذه المصانع ينوف على عشرة ملايين ليرة سورية. ويبلغ الإنتاج الشهري ما يزيد على ٢٥٠٠ طن من الصابون.

أما صناعة الزجاج فهي من المشاريع الاقتصادية الكبيرة الحديثة التي خطت بها سوريا عقيب الحرب العالمية؛ فقد تأسست بها شركة لصناعة الزجاج عام ١٩٤٦م برأس مال وطني قدره سبعة ملايين ليرة سورية، وقد بوشر الإنتاج في نهاية عام ١٩٤٩م. وينتج هذا المصنع زجاج النوافذ والزجاج المحجر ـ القوارير على اختلاف أنواعها ـ الأدوات المنزلية المختلفة ـ المصنوعات التحفية.

ومقدار الإنتاج اليومي هو ٢٠ طناً من زجاج النوافذ و١٠ أطنان من الزجاج المحجر و٢٥ طناً من القوارير والأدوات المنزلية وطنان من المصنوعات التحفية ومليون قارورة شهرياً. ولقد أعانت الحكومة السورية هذا المصنع وشجعته، فكفلته لدى البنك بقرض قيمته مليونان وسبعمائة ألف ليرة سورية وحمته جمركياً من مزاحمة الصناعات الأجنبية.

وهذا المصنع يفي بحاجة سوريا ويصدر إلى البلدان العربية وترد عليه طلبات من إيران وما حولها. وبه معمل لصنع علب الكرتون لتغليف الزجاج، وهو معمل ضخم بلغت نفقاته مليوناً ونصفاً من الليرات السورية، وبه مدرسة ميكانيكية لأعمال التصليح والصب والخراطة وتأمين قطع الغيار. وبه معمل أيضاً للنجارة لحفظ الزجاج ونقله، ومعمل

كيماوي. ولقد زرت هذا المصنع وتفقدت أقسامه، وكان مديره الدكتور شكيب الجابري يشرح لنا كثيراً عن أعمال المصنع، ولقد أعجبت بهذا المصنع، وزاد إعجابي وإكباري أن جميع الذين يعملون بين جدرانه هم من رجال سوريا الكرام، هؤلاء الرجال الأحرار النابهون الذين لم يسمحوا للأجنبي أن يزاحمهم في عمل ما إلا بقدر ما يختطفون منه الصنعة بأسرع وقت، ثم يزيحونه ليحلوا محله. فأين هؤلاء من أناس لا يريدون أن يعملوا ويفضلون أن يكون العمل في بلادهم دائماً بأيدٍ أجنبية تمتص خيرات البلاد ويأتي عملها تافهاً مغشوشاً، وإذا أراد أحد أن يعمل من أبناء البلاد احتقره بنو جلدته ورأوه ليس بأهل لمزاحمة الأجنبي؛ ومن هنا يقصر من يريد أن يعمل وتكبت المواهب التي تريد أن تبرز، ولسان الحال يقول:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

هذه بعض الصناعات الكبيرة في سوريا، وهناك صناعات أخرى ضربنا عنها صفحاً كصناعة حلج القطن وصناعة الكونسروة والفواكه المحفوظة، وصناعة المسامير والدبابيس والبسكويت والشوكولاتة والأواني المنزلية ونحوها.. مما يبرهن على أن هذه البلاد تطلب أن تزاحم الأمم وأن تثبت مركزها كدولة لها مكانتها المرموقة تحت الشمس.

❖ الزراعة:

الزراعة هي المصدر الأول لاقتصاديات سوريا، وهي التي تشكل الجانب الأكبر من الثروة السورية، وعليها تعتمد البلاد في تنمية اقتصادها، إذ يبلغ نتاجها نصف الدخل القومي، أي ما يزيد على

خمسمائة وخمسين مليوناً من الليرات السورية. ومعظم الأراضي السورية قابلة للزراعة والاستغلال، ولكن المستغل منها الآن حوالي النصف وهو ما يبلغ أربعة ملايين ونصف المليون من الهكتارات ويقابلها مثل هذا العدد صالح للزراعة لا يزال غامراً، وهو يتطلب الأسواق التي تصرف منتوجات الزراعة ليقدم الفلاح السوري النشيط على استغلال هذه الأرض.

وللحكومة السورية ملكية زراعية كبيرة، إذ تبلغ ملكيتها ما يقارب ربع الملكيات الزراعية السورية، وفي أيدي كبار الملاك ما يقارب ثلثها والبقية في أيدي عامة الشعب. وتعمل الحكومة الآن على رفع مستوى الفلاح العادي وتنوي توزيع أراضيها عليهم. وتحتل زراعة القطن المكان الأول في الزراعة السورية، ويزداد الإقبال على زراعته ويتكاثر المحصول عاماً بعد عام؛ فقد بلغت المساحة المزروعة بالهكتار عام ١٩٥٣م ١٣٠٠٠٠ هكتار بلغ محصولها ٤٧٢٣١ طناً، تصدر الفائض منه بعد حاجتها إلى الجهات التالية: لبنان، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، بلجيكا، اليابان، ألمانيا الغربية، الولايات المتحدة.. وغيرها من دول العالم.

ولدى الحكومة السورية مشاريع زراعية كبيرة أهمها مشروع وادي الغاب، هذا المشروع الذي سيرفع مستوى البلاد من كافة النواحي؛ ويقع هذا الوادي في وسط البلاد السورية وتقدر مساحته ٨٢ ألف هكتار، ويقدر لهذا المشروع ٦٣ مليون ليرة، وهو عبارة عن منخفض كبير تتسرب إليه مياه نهر العاصي إبان الفيضان وتتجمع فيه السيول والينابيع المنحدرة من الجبال المحيطة به.

ويقرب من هذا المشروع مشروع ريّ (الروج) الذي بدأت

الحكومة السورية في تنفيذه؛ وهو أيضاً عبارة عن بحيرة تكونت من الأمطار والينابيع، فرأت الحكومة السورية تحقيقه للاستفادة من مياهه وأرضه والقضاء على الملاريا الناشئة منه، وهو مشروع حيوي سيعود على سوريا بالنفع العميم.

وهناك أكبر مشروع ريّ حديث في الشرق، وهو إيصال ماء الفرات إلى حلب أكبر مدن سوريا، فقد كانت هذه المدينة تعاني أزمة مائية ففكرت الحكومة السورية في حل هذه الأزمة ومد هذه المدينة العظيمة بماء الفرات، فتأكد العزم وبدأت في تنفيذ المشروع. وعما قليل ستتدفق مياه الفرات في أحضان الشهباء. وسيكون لهذا المشروع أثر فعال في إنهاض سوريا. وهذا المشروع يتلخص في رفع مياه الفرات إلى ما يقرب من مائة متر بوساطة آلات حديثة، وتبلغ تكاليف هذا المشروع ٥٠ مليون ليرة.

❖ عين الفيجة:

ولعلك تسأل: ما الذي يمدُّ دمشق، هذه المدينة العظيمة، بماء الشرب وقد يكون في سؤالك شيء من الغرابة لأن سبعة من الأنهار تخترق مدينة دمشق. ولكن هلّا سألت لماذا وأنت في عز الصيف والمياه كلها ساخنة تفتح الصنبور في غرفة نومك أو مجلسك أو مضجعك فيندفع إليك ماء شبم لا تستطيع أن تضع يدك فيه مدة خمس دقائق من شدة برودته، سواء كنت في كوخ حقير أو في بناء شامخ يتألف من أدوار كثيرة؟ وهلّا سألت عن حلاوة هذا الماء وكيف تنعم بلذة عجيبة تسري في كيانك عندما تحتسي كأساً منه؟ إن عين الفيجة هي هبة الله لدمشق، وإن رجالاً اقتادوها من منبعها وتخطوا بها النجاد والوهاد مسافات طويلة

حتى أدخلوها دمشق، رجال عظماء يخلدهم التاريخ. ولقد كانت دمشق قبيل الحرب الكونية الأولى كغيرها من المدن الشرقية تشرب الماء العكر الملوث وتبدو آثاره السيئة في أجسام الأمة وحواسّها. ولكن رجال سوريا الأحرار لم يصبروا على هذا الوضع. فبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى ودبَّ في الأمة روح الإصلاح فكروا في انتشال مدينتهم العظيمة من براثن الأوبئة الفاتكة، وأول من فكر في ذلك رجل يدعى لطفي الحفار هذا الرجل قد أوقف نفسه على هذا المشروع وبذل في سبيله كل قواه، وهذا المشروع ليس مشروعاً استغلالياً يريد أصحابه من ورائه الربح المادي، بل هو مشروع بلدي يعمل في صالح البلاد فقط بالتعاون مع الحكومة السورية؛ وقد بلغ عدد المشتركين فيه لصالح البلاد أربعين ألف مشترك، وأوصل الماء إلى أعلى نقطة في المهاجرين الواقعة في جبل قاسيون ومدت السبل المجانية في كافة أحياء دمشق، ويربو عدد هذه السبل على ٨٠٠ سبيل.

وإن أنس لا أنسى أمسية طيبة من أمسيات دمشق حظيت فيها بصحبة إخوان كرام يكرمون الوفادة ويحافظون على العادات العربية والتقاليد الإسلامية، وهم الأساتذة: زهير شاويش من أبرز شخصيات الإخوان المسلمين في سوريا، ومحمد الصباغ مدرس الأدب العربي في ثانوية درعا، ومحمد أديب غالب مدير الميتم السعودي، وفهد المبارك الملحق الأول بالسفارة السعودية؛ حظيت فيها بصحبة هؤلاء إلى منبع عين الفيجة، وكنا نخترق في طريقنا جنات من أعناب وزيتون ورمان ونمرّ بالجداول تنساب بين هذه المروج انسياب الأفاعي، حتى إذا قاربنا هذا المنبع العظيم لفتنا في أحضانها جبال شم سامقة يحسر الطرف دون أعلاها وتمثل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ حتى انتهينا إلى هذا المنبع العظيم والآية الكبرى من آيات الله. وهناك من سفح جبل مشمخر تفور هذه المياه ولها هدير وكأنها تطلب الفرار من ضغط هذا الصفوان الذي يغمرها في أحشائه.. ثم يمتد من هذه المياه المتدفقة شريان دمشق الرئيسي بوساطة قُنَّة محكمة وتذهب بقية المياه لتعانق نهر بردى قريباً من نبع العين فسبحان من يعطي ويمنع لا معقب لحكمه.

❖ القوى الكهربائية:

كانت كهرباء دمشق قبل أربعة أعوام بيد شركة أجنبية وكان إنتاج الكهرباء لا يبلغ نصف ما تتطلبه البلاد من قوة كهربائية، فكثير من أحياء دمشق تعيش في ظلام دامس وبعضها في بصيص خافت لا قيمة له، وكانت الشركة هزيلة تافهة، فضاق أهالي دمشق بهذا الوضع السيّىء وأيقنوا أن هذه الشركة لا تتلاءم وتقدم البلاد وآمالها ومطامحها، لا سيما وأن الكهرباء هي الدعامة المتينة التي يقوم عليها أساس النهضة.. فنادوا بالتأميم رغم ما أمامهم من عقبات ومشاكل، ولكن لا صعوبة مع الإيمان الصادق والعزم الأكيد فقد استطاعت المؤسسة الجديدة أن تسير بهذا المشروع مراحل كبيرة وبلغ نتاجها الكهربائي في عام ١٩٥٣م، ٦٠٠٠ كيلو واط، إذ ابتاعت محركات جديدة لتوليد الكهرباء، وأنشأت مراكز للتحويل وأصلحت وجددت في المشروع الأول.

والمؤسسة سائرة في طريقها لإيجاد طاقة هائلة من الكهرباء سوف لا تتمكن دمشق من استهلاكها إلا بدعاية من المؤسسة وإغراء الأهالي على الاستهلاك بثمن زهيد، وسوف يشجع هذا أصحاب الورش والمصانع ويزيد البلاد قوة إلى قوتها.

فهناك معمل (في الهامة) يقدر إنتاجه بما يزيد على خمسين ألف كيلو واط سوف تغمر قوته العظيمة أحياء دمشق قريباً. وهناك معمل نهر بردى الذي سوف تستعمل فيه الطاقة المائية المنحدرة من هذا النهر في توليد قوة كبيرة من الكهرباء تقدر بثلاثين مليون كيلو واط سنوياً، وقد بدأ العمل فيه على قدم وساق وسوف يكون جاهزاً في عام ١٩٥٦م.

قوة كهربائية هائلة سوف تكون طوع بنان شعب كادح حيٍّ يسخرها في بناء مستقبله وقوته ورفاهه.

❖ المواصلات:

أستطيع أن أقول إن أكبر عون لسوريا في نهضتها الحديثة هي المواصلات، فلقد أدركت أن المواصلات هي القنطرة التي تسير عليها نحو تحقيق أهدافها ومبادئها كما كانت لسائر الأمم. وإن أمة يذهب بها الخيال فتحاول خلق مشاريع في بلادها قبل أن تؤمن مواصلاتها لصارخة في واد، ونافخة في رماد، فمن أين لزراعة البلاد وصناعتها وتجارتها وجيشها أن تعيش ما دامت أجزاء البلاد متفرقة ومواصلاتها بدائية عقيمة مهما بلغت قوتها وتقدمها في النواحي الأخرى؟! فليس بدعاً أن تكون مواصلات سوريا الحديثة ذات شأن وخطر بعد أن كانت في عهد الانتداب هزيلة تافهة. فلقد أسست سوريا الحديثة شبكة آلية في كبريات المدن السورية وأنشأت محطات لاسلكية للإذاعة والهاتف والبرق كلفت الحكومة (٣٠٠٠٠٠٠٠) ليرة سورية ولديها محطات أخرى تمكنها من الاتصال بكبريات مدن العالم برقياً وهاتفياً.

أما شبكة الطرق في الجمهورية السورية فيبلغ طول المرصوفة منها

(١٠١٢٧) كيلو متراً! اقرأ الرقم مرة أخرى فهو قياسي بالنسبة لمساحة سوريا.

ويبلغ عدد السيارات في سوريا (١١١٢٧) منها (٥٦٨٣) للشحن وحافلات (باصات) نقل كبار. ويبلغ طول خطوط السكك الحديد المستعملة (١٩٢٣) كيلو متراً؛ يعمل فيها (٢١٩٦) عربة. وتسير المواصلات وخطوط النقل للسيارات والترام في قلب دمشق بطريقة فنية منظمة لا يحس الركاب فيها بأدنى مضايقة أو إهانة.

ففي المحطة العامة لخطوط السيارات مراكز لكافة خطوط دمشق أقيمت فوقها مظلات وعمل بها ممرات من قضبان الحديد بقدر ما يتسع الممر لشخص واحد على شكل خط منكسر، ولا بد لكل راكب أن يدخل من هذا الممر وينتهي إلى باب السيارة. وهذه الطريقة تحفظ للمتقدم تقدمه حتى إذا امتلأت مقاعد السيارة أغلق الباب وأخذت السيارة طريقها لتحل أخرى مكانها، ولا تظن أنك سترى راكباً واقفاً حتى لا يتضرر بوقوفه ويتضرر به الآخرون، ما عدا رجال الأمن ونحوهم ممن تستدعي ظروفهم السرعة ويترتب على تأخيرهم ضرر. ورجال الأمن وإن كان لهم تدخل في هذا التنظيم في المحطة العمومية، إلا أن الوعي الاجتماعي هناك يساعد أكبر مساعدة على تطبيق هذا النظام ومثله. فإننا لا نرى رجال الأمن في المحطات الفرعية التي نجدها مكتظة تنتظر دورها في الركوب، وبمجرد ما يخبرهم قاطع التذاكر (الكمساري) بامتلاء السيارة يمتنعون من أنفسهم.. وهكذا يكون الشعب الناضج المؤدب يحترم النظام ويحترم حقوق الغير ويتحاشى مظاهر الفوضى واللامبالاة مما يجعله محتفظاً بكرامته وعزته مقدراً بلاده وأمته، يحب أن يرى شعبه شعباً مثالياً بين أمم الأرض، يؤثر الديمقراطية والعدالة ويقدس

المثل العليا والأخلاق الكريمة فمتى نرى شعبنا يتحلى بهذه الصفات ويحمل هذه الروح؟! متى يمحو من قاموسه هذه الأنانيات والأثرة وحب الذات»! هل العلم وحده كفيل بأن يجعل الشعب مثاليًّا إذا لم يتعود حب النظام وتقديس المثل العليا؟!

إنني أشك في ذلك، فلقد رأيت من المتعلمين عندنا من يمثل الفوضى والاضطراب ورأيت من الجهال هناك من يمثل النظام ويقدر المسؤولية!!

فالعلم (لا تجني البلاد ثماره)   ما لم يتوَّج ربُّهُ بخلاقِ

نهاية واعتذار

وبعد فكأني بعلامات استفهام ترتسم على شفتيك - أيها القارىء الكريم - طالباً مني أن أصور لك دمشق كما هي في مظهرها ومخبرها وجيشها وأحزابها وعادات أهلها وتقاليدهم وأجناسهم ومذاهبهم وميولهم واتجاهاتهم.. إلى غير ذلك مما يعنى به الرحالة ويحرصون على تدوينه.. وتتشوق له نفوس كثير من القراء وتتبعه. ولكني لم ألتزم في كتابي هذا شيئاً من هذا النوع. ولم آخذ على نفسي تدوينه وكل ما هنالك هو آراء وأفكار وخواطر ولدتها مشاهدات عابرة وأحاسيس حبيسة ودعا إلى تسجيلها أحد أمرين، إما مقارنة يجد القارىء في التعليق عليها ما يثير غيرته ويحرك وجدانه ويحدوه إلى الاستيقاظ والعمل.. وإما طرافة في موضوع يجد القارىء فيه لذة ومتعة.. ومن هنا جاءت مواضيع هذا الكتاب متساوقة على هذا النحو.. ولا تخطىء - أيضاً - إذا قلت إن لعامل الصدفة وبعض الميول الخاصة أثراً في اختيار هذه المواضيع.. فهذه كمقدمات أو وسائل أدت إلى هذه النتيجة.

وإذن فلتأخذ ما مر بك في هذا الكتاب على أنه نماذج تستطيع أن تستشف من خلالها ما يعطيك الحكم الصحيح على حالة دمشق في كافة النواحي والميادين. . ولتدرك أنه ليس المراد من هذا الكتاب كشف الستار عن مجهول حاولت إيضاحه؛ ولغز حاولت حلّه؛ فلم تكن دمشق خلف الستار الحديدي ليكون الحديث عنها أكثر طرافة ومتعة. . ولم تكن عاصمة بلاد أجنبية يتشوق القارىء إلى جديد في الحديث عنها. . فهي بلاد عربية إسلامية مجاورة لا يزال الاتصال والامتزاج مستمراً بيننا وبين أهلها. ولكن ـ كما قلت آنفاً ـ لا أقصد من وراء ذلك إلا ذكر الشيء

بالشيء ومحاولة تصوير ما عساه يثير الغيرة ويوقظ الشعور مع بعض لمحات ربما يكون فيها تعليل للنفس أو تحايل على القارىء. . وهنا حقيقة أحب ذكرها قبل أن أودعك ـ أيها القارىء الكريم ـ ذلك أنني ربما لم اختط حينما أتعرض لموضوع من الموضوعات، فيحس القارىء شيئاً من المبالغة أو يأخذه على أنه حكم عام. . كأن يظن أنني عندما أتكلم عن الروح الوطنية أو الإسلامية ـ مثلاً ـ في دمشق أن هذا الحكم يتناول سائر أفراد هذه البلاد. . أو يظن أنني حينما أثني على شباب سوريا، أنني أقصد كل شاب فيها.

والحقيقة خلاف ذلك، وإنما أردت المجموع لا الجميع والغالب لا الكل. . فإن في سوريا بعض الديانات الأخرى والاتجاهات المعاكسة والفرق الضالة. . وفي بعض شبابها نزعات طائشة، وأفكار خطيرة، فهناك طائفة من الشباب قد تبنت فكرة القومية العربية وراحت تدعو لها وتتحمس في دعوتها، وترى أن الدين الإسلامي غير كفيل بنصرة العرب وتمكينهم، وتضرب مثلاً لذلك بدول أوروبا حينما كان المبدأ الذي يتكئون عليه هو الدين كانوا أذلة صاغرين. . وحينما جعلوا مبدأهم يرتكز على القومية أصبحوا قادة العالم وزعماءه. هكذا انخدع هؤلاء الشباب، وراحوا ضحية الجهل بحقيقة الأديان وسنن الله في أرضه، لعدم تمكنهم من علم الاجتماع وإعمار الأمم وسنن تطورها، فلم يفرقوا بين دين روحي صرف لم يتدخل في شأن من شؤون الدنيا، وهو الدين المسيحي؛ وبين دين نظم شؤون الدنيا على أدق نظام وأجمعه، وعجزت الدساتير عن أن تضاهيه. . كما نظم شؤون الآخرة وضمن الفلاح لمن اهتدى بهديه واستنار بنوره.

فهرس المحتويات

الإهداء ٥
مقدمة الطبعة الثانية ٧
تمهيد ١١
مقدمة ١٣
بدء الرحلة ١٩
إلى دمشق ٢٧
دمشق في التاريخ ٣٣
أول خلق معماري في الإسلام الجامع الأموي ٣٥
دار الكتب الظاهرية ٤١
المجمع العلمي ٤٥
ما سيحققه المجمع ٥٠
خريدة القصر ٥٠
ديوان ابن أبي الخياط ٥٠
ديوان ابن أبي حصينة ـ شرح المعري ٥١
فهرس المخطوطات والمجلة ٥١
أمراء دمشق ٥١
محمد كرد علي ـ حياته وآثاره ٥٢
اتصالات المجمع ٥٢
متحف التقاليد الشعبية قصر العظم ٥٣
المتحف الوطني ٥٩
ملهمة الشعراء ٦٣
القباب والأضرحة ٦٩
دمشق المسلمة ٧٥

العروبة في دمشق ٧٩
السلفية بين صفوف الجامعة وحلق العلماء ٨١
العلم والتعليم ٨٩
شباب الجامعة ٩٥
الجامعة السورية تحتفل بطه حسين ١٠١
مقابلة مع الدكتور طه حسين ١١١
الصحافة والأدب ١١٥
الشؤون الاجتماعية في دمشق ١٢٣
الميتم السعودي ١٣٣
نظرة إجمالية ١٣٩
موقع سوريا ١٣٩
المال والاقتصاد ١٣٩
التصنيع ١٤٠
الزراعة ١٤٤
عين الفيجة ١٤٦
القوى الكهربائية ١٤٨
المواصلات ١٤٩
نهاية واعتذار ١٥٣
فهرس المحتويات ١٥٥

